الفصل الثالث

الغزوة الاستعمارية للجزائر

١ - التركيب الاجتماعى للجزائر .
٢ - الحملة الفرنسية على الجزائر .
٣ - حركة الأمير عبد القادر .
- معاهدة ديميشيل فى فبراير ١٨٣٤ .
- تجدد الحرب بين عبد القادر والفرنسيين .
- معاهدة التافنة فى ٢٠ مايو ١٨٣٧ .
- مقاومة الحاج أحمد باى قسنطينة .
- سقوط معاهدة التافنة وتجدد الحرب .
- الجنرال بيجو وخطة الطوابير المتحركة .
- الزملة .
- نكبة الزملة .
- استمرار مقاومة عبد القادر .
- الحرب بين عبد القادر وسلطان المغرب .
- تحطيم مقاومة عبد القادر .
- استسلام عبد القادر .
٤ - المقاومة الجزائرية بعد عبد القادر .
- ثورة مقرانى ١٨٧١ .
مراجع للاستشارة .

١ - التركيب الاجتماعى للجزائر عشية الاحتلال الفرنسى

تشير أكثر التقديرات احتمالا لتعداد السكان فى الجزائر فى أواخر العهد العثمانى إلى أن عدد السكان لم يكن يتجاوز ثلاثة ملايين ونصف . وكانت نسبة ضئيلة من هؤلاء ، لاتتجاوز ٥ ٪ ، هى التى تعيش فى المدن ، على حين كانت الغالبية الساحقة تعيش فى الريف .

وكانت الأوضاع الاقتصادية لهؤلاء السكان ، الذين كانوا يتكونون من عرب وبربر ، متخلفة . فقد كانت الزراعة هى المصدر الرئيسى للإنتاج ، وكانت أدواتها بدائية لاتتجاوز المحراث الخشبى والمنجل . ومع ذلك فإن هذا المصدر ذاته أخذ يفسح المكان للحياة الرعوية - فأصبحت حرفة الرعى حرفة مكملة لزراعة أراضى العرش الجماعية بالنسبة لبعض جماعات السكان ، وأصبحت بالنسبة للبعض الآخر حرفة مستقلة . وكان جزء من السبب فى انتقال الفلاح الجزائرى من حرفة الزراعة إلى الرعى يرجع إلى انتشار الجدب فى قسم هام من أراضى الجزائر الشمالية ومنطقة الهضاب العليا الشرقية ، أما الجزء الآخر فيرجع إلى انعدام الأمن ، فقد كان الفلاح الجزائرى عرضة للحملات الانتقامية لضمان المطالب المالية المتزايدة للبايليك (وهو قسم ادارى كالمحافظة) ، ومهددا من قبائل المخزن المسلحة ، ممادفع الكثيرين من الفلاحين إلى تفضيل الرعى على الاستقرار فى الأرض لخدمتها ، أو الالتجاء إلى الزراعة المؤقتة والرعى المتنقل فى المناطق التى انعدم فيها الأمن ، وأصبحت تعرف ببلاد البارود أو أرض الخلاء . وقد عملت نفس الظروف فى المناطق الجبلية الحصينة على تكوين طبقة من الفلاحين قادرة على ممارسة الزراعة وحمل

السلاح فى الوقت نفسه عند الحاجة ، تحت قيادة بعض الأشراف والمرابطين ، فكان هذا الصنف من الفلاحين الدعامة الأساسية للمشيخات والعائلات الوراثية ببلاد القبائل الكبرى والصغرى وجبال الونشريس والأوراس ومواطن النمامشة والحنانشة .

وكانت الملكية الجماعية للأرض هى أكثر أنواع الملكيات انتشاراً فى الجزائر ، وإن كان النظام الإقطاعى ينتشر أكثر ماينتشر فى الشرق الجزائرى . وكان جميع السكان ، فيما عدا سكان المدن والمناطق المستقرة ، منقسمين إلى عشائر وقبائل . وفى المناطق القبلية كانت تنتشر الملكية الجماعية للأرض . وفى المناطق البدوية كانت الأراضى تنتمى للعشائر والقبائل . أما فى المناطق المستقرة فكانت تنتمى إلى الجماعات القروية . وإلى جانب الأراضى المشاعية والإقطاعية كانت توجد أراضى الدولة (الدومين) وأراضى الحبوس (الأوقاف) .

وكان السكان ينقسمون من ناحية ولائهم للسلطة التركية إلى ثلاثة أقسام :

أولا : قسم يتحالف مع السلطة مقابل فوائد مادية وأدبية ، ويعرف بقبائل المخزن ، التى اتخذت مع الزمن شكل قبائل مستقلة كقبائل الدوائر والزمالة ، أو شكل مجموعات عرقية مغلقة كمخزن الكراغلة Kuloglu .

ثانياً : قسم خاضع مباشرة للأتراك ، ويعرف بقبائل الرعية .

ثالثاً : قسم مستقل عن السلطة التركية متحصناً فى المناطق الجبلية كالأوراس والونشريس والبابور والقبائل ، أو بعيداً عن أيدى النظام بأرض الجنوب الملائمة لحياة الرعى والترحل . وتنتمى غالبية سكان هذا القسم إلى مجموعات قبلية على رأسها عائلات تعتمد فى فرض نفوذها على السلطة الروحية أو الكفاءة الحربية . وكانت العائلات ذات الطابع الدينى تتركز فى الغرب

الجزائرى ، فى حين كانت العائلات الإقطاعية ذات الطابع العسكرى تتركز فى الشرق الجزائرى ، أما الحياة القبلية الديمقراطية فانحصرت فى المناطق الجبلية الحصينة فى شمال وشرق الجزائر الوسطى .

أما فى المدن فقد اتخذ التركيب الاجتماعى فيها شكلا هرميًّا ، تحتل قمته الأرستقراطية التركية التى كان عددها لايتجاوز عشرين ألفاً ، وكانت منعزلة عن بقية السكان لصيانة تقاليدها الخاصة فى نظم العيش والسلوك . ويلى هذه الأرستقراطية فى السلم الاجتماعى جماعة الكراغلة التى تكونت نتيجة التزاوج بين الجند الإنكشارية ونساء البلاد ، وكان عددها فى المدن الكبرى فى نهاية القرن التاسع عشر يبلغ حوالى ٦٠٠٠ نسمة ، كما أصبحت تكون غالبية سكان تلمسان وأصحاب الرأى فيها .

وكانت نظرة أهالى البلاد إلى هذه الطبقة لاتفترق كثيراً عن نظرتها إلى السادة الأتراك الحاكمين . وربما كان موقف الأمير عبد القادر من كراغلة تلمسان وزواتنة القبائل ذوى الأصل الكرغلى ، تعبيراً صادقاً عن هذه النظرة .

ويلى طبقة الكراغلة طبقة الحضر التى كانت تتكون من العائلات الحضرية المتأصلة فى البلاد ، ومن مهاجرى الأندلس بعد تكاثر عددهم . وكانت هذه الطبقة تقوم بما تقوم به البورجوازية الوطنية من الأعمال الرأسمالية التجارية والزراعية ، وتولى بعض أفرادها مناصب القضاء والافتاء والكتابة .

ويلى هذه الطبقة « طبقة البرانى » ، وهم طبقة أصحاب الحرف . وفى مدينة الجزائر اشتهرت كل جماعة منها بحرفة من الحرف ، فالأغواطيون اشتهروا بالتنظيف . والبساكرة بأعمال الأثقال والحراسة ، والقبائل بأعمال البناء ، والزنوج بخدمة المنازل .

وإلى جانب هذه الطبقات وجدت طبقة الدخلاء . وكانت تتكون فى البداية

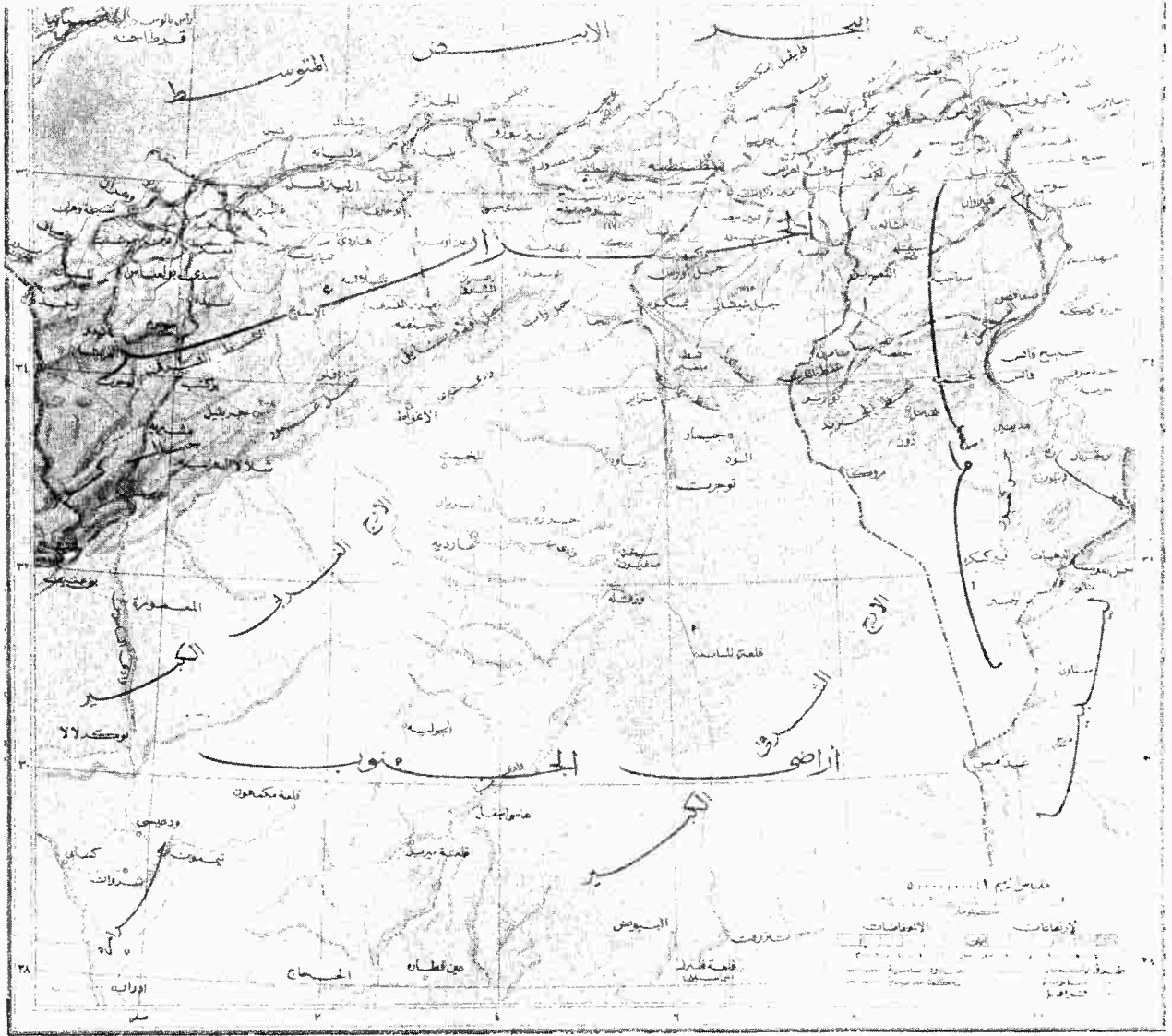
البحر الابيض المتوسط
الجزائر
الاغواط
توجرت
الاوراس
الشرق الكبير
الجنوب
الصحراء
المسعودة
الشرق الكبير
ورقلة
قلعة السانية
البيوض
الاحواضات
الانهاضات
الحجاج
عين قطاره
اوراب

من جماعة الأسرى المسيحيين المستخدمين فى الحانات أو السجون أو رعاية البساتين أو الخدمة فى قصر الداى . ولكن عدد هؤلاء المسيحيين أخذ يتلاشى بعد هجوم « اللورد أكسموث عام ١٨١٦ ، ولهذا أصبحت طبقة الدخلاء تتكون غالبيتها من الجالية اليهودية التى عملت بالسمسرة والربا والتجارة ، وكونت غالبيتها ثروات ضخمة ، وكانت محل غضب الأهالى الذى تحول إلى ثورات انتقامية فى سنوات ١٨٠١ ، ١٨٠٤ ، ١٨٠٥ ، ١٨١٥ .

٢ - الحملة الفرنسية على الجزائر

كانت مشاريع الفتح الفرنسى للجزائر قد نضجت منذ أوائل القرن التاسع عشر . فقد كان نابليون الأول يضع الجزائر فى قائمة ممتلكاته فى المستقبل عند تجزئة الإمبراطورية العثمانية ، وكان يعتبرها سوقاً ضرورية لتطور الصناعة الفرنسية . كذلك كان التعطش لأسواق جديدة فى عهد شارل العاشر ، والرغبة فى إحياء السياسة التوسعية لفرنسا ، إلى جانب رغبة أسرة البوربون فى استعادة هيبتها وتوطيد عرشها المزعزع - من العوامل الأساسية للاستيلاء على الجزائر .

وقد بقيت حينذاك مسألة الذريعة المناسبة للغزو ، وهذه وجدتها السياسة الفرنسية بسهولة فى المنازعات المالية بينها وبين الجزائر ، المتعلقة بسداد ما اقترضته فرنسا منها ، وهى المنازعات التى انتهت بضربة المروحة الشهيرة التى وجهها الداى حسين باشا إلى القنصل الفرنسى بيير ديفال يوم ٣٠ أبريل ١٨٢٧ . فبدأ حصار فرنسى على ميناء الجزائر فى يونيه سنة ١٨٢٧ استمر حتى يوم ٢٥ مايو ١٨٣٠ ، حين قامت حملة بقيادة الجنرال دى بورمون Bourmon من قاعدة طولون البحرية تضم ٣٧ ألف جندى علاوة على ٢٠ ألفاً من رجال البحرية ، نزلت على شاطئ خليج سيدى فرّج الواقعة على بعد ٢٥ كيلو متراً غربى مدينة الجزائر يوم ١٤ يونيو ، حيث دارت معركة غير متكافئة انتهت بهزيمة الجزائريين . وفى يوم ٤ يوليو سقط حصن الإمبراطور الذى يحمى مدخل مدينة الجزائر الجنوبى ، وفى المساء وقع الداى وثيقة الاستسلام . وفى صباح يوم ٥ يوليو ١٨٣٠ دخلت القوات الفرنسية المدينة دون مقاومة .

ولقد كان بسبب هذه السهولة التى سقطت بها مدينة الجزائر ، أن اعتقد

الجنرال دى بورمون أن البلاد كلها سوف تسقط فى يده خلال خمسة عشر يوماً وبدون طلقة واحدة ! . ولكنه أخطأ التقدير ، فقد استغرق إخضاع البلاد أربعين عاماً . فلم يكد يسفر الفرنسيون عن خططهم للاستيلاء على البلاد حتى أظهر العنصر الوطنى الرئيسى فى الجزائر ، وهو القبائل ، عزمه على مقاومة الغزاة ، ولذلك حين أراد دى بورمون إرسال حملة إلى « بليدة » التى تقع عند سفح الأطلسى على بعد ٤٨ كيلو متراً جنوب مدينة الجزائر فى إقليم يسكنه رجال القبائل ، لقى هزيمة ساحقة على يد قبائل المتيجة ، وقد كشفت هذه الهزيمة ، وما تلاها من إخلاء بونا ووهران بعد احتلال لم يدم إلا بضعة أيام ، عن أن تحطيم الحكم التركى فى مدينة الجزائر لن يسهل بحال السيطرة على داخلية البلاد .

٣ - حركة الأمير عبد القادر

فى هذه الظروف برزت حركتا مقاومة على درجة كبيرة من القوة ، إحداهما فى الغرب الجزائرى تحت قيادة الأمير عبد القادر ، والثانية فى الشرق الجزائرى تحت قيادة الباى أحمد قائد منطقة قسنطينة .

وبالنسبة للأمير عبد القادر ، فهو عبد القادر ناصر الدين ، الابن الرابع لعبد القادر محيى الدين ، وقد ولد فى شهر مايو ١٨٠٧ فى قرية القيطنة على ضفة وادى الحمام فى منطقة أغريس التى تقع فى إقليم وهران فى الجزائر . وهو ينتمى لقبيلة هاشم العربية النازلة قرب مدينة « معسكر » عاصمة وهران ، وهى أسرة « مرابطة » ، تستمد مكانتها من الدين . وقد لعب والده دورًا هامًّا فى الثورة التى قامت ضد الحكم العثمانى فى وهران قبيل الغزو الفرنسى . وكان الأمير ينتمى إلى إحدى الطرق الصوفية (القادرية) ذات النفوذ فى شمال أفريقية ، فهيأ له أصله القبلى وانتماؤه الدينى طريق الزعامة . وقد تعلم أصول الشريعة والحديث وحفظ القرآن فى سن مبكرة ، وتعلم الفروسية وصحب أباه فى رحلة إلى بلاد المشرق للحج ، قبل الغزو الفرنسى للجزائر ، وزار العراق ومصر ، وأعجب بالتنظيمات والإصلاحات التى أدخلها محمد على . وبعد عودته بعامين وقع الغزو الفرنسى .

وفى البداية لم يشعر الجزائريون بسبب يدعوهم إلى اعتبار الغزو الفرنسى علامة على خطر يهدد وجودهم القومى ، لأن الفرنجة طالما نزلوا بشواطئ العرب ، بل إنهم كانوا يحتلون بعض مدنهم الساحلية ، ولكن سلوك الفرنسيين سرعان ماأقنعهم بأن حضور هؤلاء الغزاة فى هذه المرة لم يكن حضورًا عاديًّا . ومن ثم بدت الحاجة ماسة إلى توحيد الصفوف والقضاء على الانقسام الإقطاعى والقبلى .

وقد اتجه المرابطون إلى محيى الدين فى ذلك الحين ، ولكنه أبدى رأيه بأن دولة غنية محكمة النظام مثل فرنسا عليها ملك قوى ، لايمكن أن تواجهها إلا دولة أخرى محكمة النظام مثلها . وكان من رأيه الانضواء تحت لواء سلطان المغرب ، وبالفعل توجهت بعثة من أهالى تلمسان إلى سلطان المغرب لإعلان ولائها ، وقبل السلطان بالفعل هذا الولاء ، وعين ممثلا له فى تلمسان ، ولكن الحكومة الفرنسية وجهت انذارًا عاجلا إلى السلطان بالانسحاب من الجزائر أو الحرب ، فلم يملك السلطان سوى الاستجابة . وعند ذلك شعر الوهرانيون بضرورة تنصيب زعامة عليهم توحد صفوفهم ، وعرضوا على محيى الدين أن يكون سلطانهم فقبل ، وتنازل عنها لابنه عبد القادر ، فتمت له البيعة يوم ٢١ نوفمبر ١٨٣٢ ، ولم يكن يبلغ الرابعة والعشرين من عمره .

من ذلك يتضح أن مهمة الأمير عبد القادر الأساسية كانت إقامة « دولة » محكمة النظام يستطيع بها مواجهة فرنسا ، ولذلك وعلى الرغم من اعترافه فى هذه المرحلة بالسيادة العليا لسلطان مراكش ، فقد اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين ، واتخذ مدينة « معسكر » مركزا لحكمه ، ودعا القبائل إلى إعلان ولائها وطاعتها له .

على أن أسباب الانقسام الداخلى لم تذلل مهمته ، فقد عارض سلطته رؤساء القبائل الذينَ صارعوا طوال الحكم التركى للمحافظة على وجود مستقل لهم . كما وقفت قبائل المخزن موقفًا معاديًا له ، وأما الفرق الدينية فقد وقفت موقفا متباينًا ، فبينما أيده أنصار الطريقة القادرية ، عارضه أنصار الطرق الطيبية والتيجانية .

وقد قامت سياسة الأمير عبد القادر على استخدام السيف فى تحقيق الوحدة الوطنية حيثما فشلت المساعى السلمية ، وعلى الاشتباك مع الفرنسيين أملا فى تحقيق نصر يقضى على عوامل الفرقة والانقسام ويذلل صعوباته الداخلية . كما قرر إقامة سيادته على أرض صلبة ، عن طريق الاحتفاظ فى يده بمراكز قوية ،

وتشييد دور الأسلحة ، وبناء المخازن ومستودعات الذخيرة . ولم يكن اتخاذ ميناء على البحر بأقل أهمية للأمير ، للاتصال بالدول الأجنبية ، واستيراد السلاح ، والتأثير الدبلوماسى على الفرنسيين ، فاحتل مدينة أرزيو الواقعة على مسافة فرسخين من الميناء الذى يحمل هذا الاسم ، كما احتل مدينة تلمسان على بعد سبعين ميلا جنوب غرب وهران ، ثم فرض الحصار التجارى على الفرنسيين من الداخل فألزم القبائل بقطع المبادلات التجارية مع الغزاة ، وأصدر فتوى بارتداد كل من يساعد الفرنسيين عن دينه ، لذلك أطلق على القبائل الخاضعة للفرنسيين اسم « المتنصرة » .

وعندما أدرك الفرنسيون أنهم أمام قوة وطنية جديدة يحسب حسابها ، رأوا ضرورة التفاوض معه على أساس الاعتراف بسيادته على المناطق الداخلية ، واعترافه باحتلال الفرنسيين للمناطق الساحلية . وعلى الرغم من أن هذا الأساس لايحقق السيادة الجزائرية على كامل أرض الجزائر ، الا أن الأمير عبد القادر لم يكن لديه مايمنعه من قبول اتفاق يتيح له الوقت الكافى للتنظيم الداخلى والقضاء على المتقاعسين والمترددين وتعزيز دولته . وهذا هو أساس المعاهدة التى عقدت بينه وبين الجنرال ديميشيل Dumichels قائد عام القوات الفرنسية .

معاهدة ديميشيل Dumichels فى ٢٦ فبراير ١٨٣٤ :

اعترفت هذه المعاهدة بالأمير عبد القادر « كأمير المؤمنين » ، وهو مصطلح لايستعمله إلا الخلفاء ذوو السلطة الروحية والسياسية ، وأقرت مبدأ تبادل القناصل بحيث يرسل هو ثلاثة قناصل إلى ثلاثة موانى رئيسية كانت فى يد الفرنسيين وهما : وهران وأرزيو ومستغانم . ويرسل الفرنسيون قنصلا واحدًا إلى مدينة معسكر عاصمة الإمارة . كما نصت المعاهدة على تبادل الأسرى وحرية العمل بالدين الإسلامى وحرية التجارة وضرورة تبادل المجرمين

الهاربين . وبالجملة فإن المعاهدة عكست علاقات القوى بين الأمير والفرنسيين ، وكان الجانب الايجابى فيها أن الفرنسيين اعترفوا بالأمير عبد القادر كرئيس لدولة مستقلة يتعاملون معه على قدم المساواة فى جميع المسائل السياسية والتجارية والقضائية ، وإن كانت المعاهدة لم تشمل تحديدًا جغرافيًّا للمناطق التابعة للأمير .

على أن عوامل الانقسام الداخلى تجددت بعد إبرام المعاهدة بسبب النزعة القبلية من جانب ، وتضرر القبائل من دفع الضريبة الإضافية التى فرضها الأمير فى أثناء القتال من جانب آخر .

وكانت الذريعة المعلنة هى مهادنة الأمير للكفار . ولكن الأمير عبد القادر تغلب على الثائرين ، وانتصر عليهم قرب تلمسان فى يوم ١٣ يوليو ١٨٣٤ . وفى نهاية سنة ١٨٣٤ كان إقليم وهران قد خضع كله للأمير ، باستثناء المركزين الفرنسيين على الساحل : وهران ومستغانم . واتجه الأمير بعد هذا إلى توسيع دائرة نفوذه بحيث اشتملت على جزء كبير من إقليم تيطرى ، فاستولى على مليانة . وأقام فيها نائبا ، وتمكن من طرد أحد رجال الطريقة الشاذلية (الحاج موسى) من الميدية فى أبريل ١٨٣٥ ، كما سلمت واحة بسكرة الواقعة جنوب إقليم قسنطينة بالتبعية لحكومة الأمير .

تجدد الحرب بين عبد القادر والفرنسيين :

رأت السلطات الفرنسية الاستفادة من الروح القبلية الانقسامية فى الجزائر ، فى ضرب سلطة عبد القادر . فشجعت قبائل الدوائر والزمالة على طلب الحماية الفرنسية ، فى مقابل زيادة التبادلات التجارية المربحة . وفى ١٦ يونية ١٨٣٥ وقعت مع هذه القبائل معاهدة وضعتها تحت الحماية الفرنسية وأصبحت بمقتضاها رعية فرنسية .

وعندما علم عبد القادر بذلك ، كتب إلى تريزيل Trezel ، الذى خلف ديميشيل فى وهران ، محتجا بصرامة على هذا العمل الذى عده خرقا صارخا لمعاهدته مع ديميشيل ، والتى بمقتضاها تعهد له الفرنسيون بعدم منح القبائل حق الالتجاء إليهم ، والتزامهم بإعادة العرب الفارين إلى صفوفهم إليه ، وقال : « إن الدوائر والزمالة هم رعيتى . وبناء على قانوننا فإن لى الحق فى أن أفعل بهم ما أشاء . فإذا سحبتم عنهم حمايتكم أجبرتهم على اطاعتى كما كانوا من قبل ، وإذا كان موقفكم العكس ، وأصررتم على التنكر لالتزاماتكم ، فاسحبوا قنصلكم من مدينة « معسكر » فى الحال ، لأنى لن أرفع يدى عن قبائل الدوائر والزمالة ، حتى ولو دخلوا وراء حصون وهران ، إلا بعد أن يتوبوا ويندموا ، فإن دينى يمنعنى من السماح لمسلم بأن يكون تحت سلطة أجنبى . فاختاروا ما يحلو لكم ، أو يحكم اله الحرب بيننا » .

فى ذلك الحين ، كان الفرسان الفرنسيون قد أغاروا على مزارع بنى هاشم الغرابة ، وهم قبيلة عائلة عبد القادر الخاصة ، طلبا للشعير الذى يفتقرون إليه . فأرسل عبد القادر قوة تتكون من ألفى فارس وثمانمائة من المشاة عند نهر « سيق » . ولكن تريزل قرر مهاجمة هذه القوة قبل أن تستفحل ، فقاد فى ٢٦ يونية ١٨٣٥ جيشا يتكون من خمسة آلاف من المشاة وفرقة من القناصة ، وأربع قطع مدفعية ، وعشرين عربة تموين . ولكن هذه القوة لم تكد تدخل غابة مولاى إسماعيل ، حتى تعرضت للهجوم من « طلائع » فرسان عبد القادر ، فدبت الفوضى فى كامل الجيش الفرنسى ، ولم يمكن إعادته إلى النظام إلا بجهد جهيد .

ثم وصل الجيش الفرنسى إلى نهر سيق عند الغروب حيث نصب معسكره ، بينما كان جيش عبد القادر الرئيسى يعسكر على بعد فرسخين من النهر . وعند الفجر أراد تريزيل الانسحاب ، ولكن عبد القادر سارع إلى قطع الطريق المؤدى إلى وهران ، واضطر تريزيل إلى أن يتحول قاصدا مدينة « أرزيو » عن طريق مضيق نهر الهبرة عند مكان يتغير فيه اسم النهر إلى اسم نهر المقطع .

ولكن عبد القادر سارع إلى الاستيلاء على المضيق ، بعملية باهرة ، فقد اختار ألف فارس ، وأمر كل منهم بأن يردف خلفه فارسا آخر ، وأن يسرعوا إلى المضيق ، ونجحت العملية نجاحا كاملا ، فلم يكد الفرنسيون يدخلون المضيق ، حتى وجدوا جانبيه مدججين بالسلاح ، وأخذت تنهال عليهم الصخور ، فى الوقت الذى كان عبد القادر وجيشه كله قد سدوا عليهم الطريق إلى الخلف . وأسرعت الكتائب الفرنسية هنا وهناك بحثا عن مفر دون جدوى ، وفصل رجال المدفعية المدافع عن حاملاتها وهربوا ، واختلطت الفرق ، وعند الليل كانت البقية الباقية من القوات الفرنسية تسير مضعضعة نحو مدينة أرزيو فى جماعات مفككة ، بينما كان الجنود الجزائريون ترتفع صيحاتهم بالفرح ، وتلمع مشاعلهم المتوهجة فى المضيق خلال الليل كله ، وجثت القتلى الفرنسيين ورءوسهم تتكدس وترتفع فى هرم صغير .

وقد وقعت هذه الهزيمة ، التى لقيتها القوات الفرنسية فى « معركة المقطع » ، وقع الصاعقة فى فرنسا ، فاهتزت للنكبة ، واستدعى الجنرال تريزيل ، وحل محله الجنرال دارلانج ، وعين المارشال كلوزيل حاكما عاما ، وأخذت الحكومة الفرنسية فى زيادة عدد الجيش فى الجزائر ، وأعدت ادارة حرب قوية لمحاربة عبد القادر ، وأصدرت قرارا باحتلال مدينة « معسكر » أملا فى أن احتلال عاصمة عبد القادر سوف يجبره على التسليم .

وقد وصل كلوزيل إلى مدينة الجزائر يوم ١٠ أغسطس ١٨٣٥ ، وأرسل الحملات العسكرية إلى المدية وملیانة وشرشال ، ولكنها جميعا عادت خائبة مهزومة . وأمر عبد القادر خليفته فى ملیانة بالسير إلى متيجة على رأس خمسة آلاف مقاتل ، ونظف سهول مدينة الجزائر من كل المستوطنين الفرنسيين ، وأقام الحصار على مدينة الجزائر نفسها . وفى الوقت نفسه أصبح الجنرال دالانج D'Arlange ومعسكره فى وهران محصورين فى البوغاز ، وأوشك عبد القادر أن يحقق انذاره بأن « أى طائر لن يطير فوق المدن التى يحتلها الكفار إلا بأمر منه » !.

وقد أثارت هذه الهزائم غضب الجيش الفرنسى ، وطلب اتخاذ اجراء ضد عبد القادر . فتوجه كلوزيل إلى وهران يوم ٢١ نوفمبر ، وأعد بنفسه جيشا قويا من اثنى عشر ألف مقاتل ، وغادر وهران يوم ٢٧ نوفمبر ، واجتاز غابة مولاى إسماعيل ، وعبر نهر سيق دون مقاومة ، ولكن عبد القادر كان ينتظره فى الطريق الرئيسى إلى مدينة « معسكرة » حيث وضع ميسرة قواته على مرتفع نصب فوقه المدفعية ، بينما كانت ميمنته محمية من الهجوم . على أن جيش عبد القادر من رجال القبائل كان يفتقر إلى مستوى عبقرية قائده التى دعته إلى اختيار ذلك المكان ، كما كانت أقل من المستوى اللازم لخوض المعركة فى هذا الميدان المكشوف . ولذلك استطاعت المدفعية الفرنسية تمزيق شمله ، واستولى الفرنسيون على الغابة الواقعة على يمين المواقع العربية ، بينما تقدمت مدفعيتهم إلى الأمام فى الطريق الرئيسى . وقد حاول عبد القادر دون جدوى المحافظة على بعض النظام أثناء انسحاب قواته ، ولكن الروح القبلية الانقسامية تغلبت ، فانحلت فرق مشاته النظامية ، وأما فرسان القبائل فقد عاد البعض منهم إلى المنازل ، وأسرع البعض الآخر إلى مدينة معسكر وبدأ فى أعمال النهب . وأما عبد القادر نفسه فقد انسحب إلى حصن كاشرو الذى كانت تمتلكه أسرته على بعد فرسخين من « معسكر » .

وفى يوم ٦ ديسمبر ١٨٣٠ دخل كلوزيل مدينة معسكر التى هجرها أهلها ولم يبق منهم سوى بقية من اليهود البؤساء . وفى السابع من الشهر اشتعلت النار فى أجزاء مختلفة من المدينة ، ولكنها سرعان ما أطفئت . وفى اليوم الثامن من الشهر ، أى بعد ثمان وأربعين ساعة ، انسحبت القوات الفرنسية من « معسكر » .

وقد كان رد فعل هذه الهزيمة قاسيا فى نفس عبد القادر . فقد تلطخت سمعته وشهرته نتيجة ضعف وجبن بعض رجاله وخيانة الآخرين ، وتخلى عنه بعض رؤساء القبائل الذين كان يعتمد على تأييدهم . على أن روح اليأس لم تدب إلى قلبه ، وحاول تثبيت المنزعجين وتشجيع المنهارين . وحين أرادت أمه أن تبث فى

أذنه بعض كلمات المواساة والصبر والعزاء ، رد عليها قائلا : « إن النساء يا أماه هن الجديرات بالشفقة وليس الرجال » .

وحين جلا الفرنسيون عن « معسكر » ، كان هو أول من عاد إليها وظهر أمام أبوابها . وانتشرت أخبار عودته بسرعة ، فرجع كثيرون ، وجاء بعض رؤساء القبائل ممن فروا ، وسألوه عما يطلبه منهم ، فطلب إعفاءه من الحكم ، على أنهم جثوا أمامه وطلبوا منه الصفح ، ووعدوه بالثبات فى المستقبل قائلين إنه « إذا تخلى عنهم فلن يكون أمامهم إلا الاستسلام للكفار » . وقد لمس هذا القول الوتر الوحيد الذى يخفق له قلب عبد القادر ، فأجاب : « ليفعل الله ما يشاء ، ولكن تذكروا أننى أقسمت ألا أدخل مدينة معسكر باستثناء الجامع ، حتى تثأروا لهزيمتكم النكراء » .

على أن هزيمة عبد القادر كانت قد فعلت فعلها فى القبائل الأخرى البعيدة ، ودعتها إلى الانقلاب عليه ، والتخلص مما فرضه عليها من ضرائب الجهاد . فقد انحاز مصطفى بن إسماعيل إلى أعداء البلاد ، ووعد كلوزيل بأن يجلب له تعاون وتأييد عدد كبير من القبائل العربية إذا ما تقدم نحو تلمسان . كذلك أعلن « بنو انجاد » صداقتهم لكلوزيل ، وأخذوا يتقدمون فى أعداد كبيرة نحو المدينة ، لمساعدة الكراغلة على الفرار من القلعة التى كانوا محاصرين فيها .

وقد أحس عبد القادر أن القضاء على هذه الروح القبلية الانقسامية لا يقل أهمية من الناحية النضالية عن القضاء على الاستعمار ، فسارع إلى مهاجمة المنشقين ، وفاجأ مصطفى بن إسماعيل والكراغلة فى نفس اللحظة التى كانوا يهمون فيها بالخروج من المدينة فأعادهم إليها ، ثم استدار إلى « بنى انجاد » ، فهزمهم ، وأنزل بهم انتقامه لخيانتهم . على أنه لم يكد ينتهى من ذلك ، حتى ظهر كلوزيل وجيشه المكون من ثمانية آلاف جندى أمام المدينة ، فانسحب منها عبد القادر مع كامل سكانها إلى مدينة وجدة على الحدود المغربية ، ودخل كلوزيل تلمسان يوم ١٣ يناير ١٨٣٦ ، حيث استقبله بن إسماعيل والكراغلة وجمع من اليهود ، باعتباره منقذا لهم .

ولكنه لم يلبث أن طلب منهم دفع مبلغ مائة ألف فرنك كعربون على إخلاصهم ، وأخذ فى جمع هذا المبلغ بالقوة والشدة ، كما نصب يهوديا رئيسا لمحكمة أخذت تحاكم الكراغلة ، مما لم يسبق له مثيل من قبل ، لما يحمل من معنى احتقار للمسلمين .

وهكذا دفع المنقلبون ثمن انقلابهم من غدر المحتلين . وقد علق عبد القادر على ذلك قائلا : « إذا كانت تلك معاملة الفرنسيين لأصدقائهم ، فماذا عسى يتوقع أن تكون معاملتهم لأعدائهم ؟ » . على أن هذه المعاملة خدمت قضية عبد القادر ، فقد فتح بنو انجاد الاتصالات مع عبد القادر ، وأرسل إليه الكراغلة سرا يبلغونه أنهم لا ينتظرون سوى رحيل الفرنسيين لتسليم القلعة إليه . وهكذا تحسن وضع عبد القادر بفضل غدر المستعمرين .

فى ذلك الحين كان كلوزيل فى سبيل إقامة اتصال مباشر بين تلمسان والساحل ، عن طريق إقامة معسكر حصين على مصب نهر التافنة Tafna . وكانت المسافة بين الموقعين فى منطقة جبلية ، وقد عزم على تحقيق هدفه يوم ٢٣ يناير . ولم يكد عبد القادر يعلم بهذه الخطة ، حتى عبأ جيشه كاملا لإحباطها ، ودارت معركة شرسة دامت عشرة أيام متتالية ، استبسل فيها العرب استبسالا كبيرا لرغبتهم فى الثأر لهزيمتهم السابقة ، وقد استفاد عبد القادر من أخطاء المعركة السابقة ، فلم يحاول الدخول فى معركة مواجهة ، بل أخذ يستولى على الهضاب والوهاد والصخور والأنهار ، ويدافع عنها طبقا لمتطلبات المعركة . وحين أراد الفرنسيون إظهار الشجاعة ، تكبدوا خسائر فادحة ، وانهزم كلوزيل ، واضطر إلى الانسحاب إلى تلمسان حيث ترك حامية فى القلعة ، ثم عاد بجيشه إلى وهران ، بينما كان عبد القادر يطارده حتى أبوابها . وفى ابريل سافر كلوزيل إلى فرنسا تاركا للجنرال دارلانج تعليمات بإتمام مهمة إقامة المعسكر على مصب نهر التافنة .

على أن محاولات دارلانج قوبلت بمقاومة شديدة ، فقد وصل بصعوبة كبيرة

إلى مصب نهر التافنة على رأس ثلاثة آلاف من المشاة وثمانى قطع من المدفعية ، وأخذ فى إقامة المعسكر الحصين ، ثم تقدم يوم ٢١ أبريل لفتح الطريق إلى تلمسان ، ولكن عبد القادر الذى كان يراقب الموقف ، تقدم لمواجهته ، واستطاع إجباره على الانسحاب والحيلولة دون اتصال المعسكرات الفرنسية . وأحست الحكومة الفرنسية بخطورة المقاومة ، فأخذت فى إرسال الامدادات لفتح الطريق إلى تلمسان بالقوة ، فى يوم ٦ مايو ١٨٣٥ نزل الجنرال بيجو Bugeaux على مصب نهر التافنة على رأس قوات كبيرة تبلغ ثلاث فرق جديدة ، وأخذ فى تجديد المحاولة لفتح الطريق إلى تلمسان ، وقد حارب عبد القادر معركة طويلة يائسة ضد القوات الصغيرة التى كانت تفوق قواته ، وفى هذه المرة لقى هزيمة كاملة .

وكما حدث بعد احتلال معسكر من جانب الفرنسيين ، فإن هذه الهزيمة تركت آثارها فى القبائل ، فكثير من الكتائب عادت إلى مواطنها ، وانشقت بعض القبائل ، وظهر فى ذلك الحين ثائر يدعى سيدى إبراهيم ، انتحل لنفسه لقب السلطان ، وأعلن الثورة ضد عبد القادر ، ولكن عبد القادر سارع إلى معاقبة هذا الخائن ، فقد جرد سيفه من غمده ، وعلقه فى سرجه ، وأقسم ألا يغمده وألا ينزل عن فرسه حتى يقطع رأس الخائن ، وأسرع بمفرده تقريبا إلى قبيلة بنى عامر ، حيث كان يعلم أن الخائن بينهم ، وطلب تسليمه فى الحال ، وخشيت القبيلة أن تمتنع عن تسليمه فتتعرض للاتهام بتواطئها معه ، فسلمته إليه ، وفى الحال قطع عبد القادر رأسه جزاء خيانته .

ولم يلبث عبد القادر أن استرد قوته ، وأخذ فى محاصرة المراكز الفرنسية التى أقامها الفرنسيون فى المناطق الداخلية ، حتى يقطع كل اتصال بينها وبين المراكز الرئيسية . كما قطع كل مئونة عنها حتى اضطر الحاكم الفرنسى فى تلمسان إلى أكل القطط ، وكان يشترى الواحدة منها بمبلغ أربعين فرنكا ! .

معاهدة التافنة Tafna فى ٢٠ مايو ١٨٣٧ :

فى ذلك الحين كان الفرنسيون يحاصرون قسنطينة ، عاصمة الشرق الجزائرى . وكانت هذه المدينة تخوض نضالا باسلا ضد الغزاة الفرنسيين تحت قيادة الحاج أحمد باى ، آخر البايات الاتراك الذين كانوا يمثلون السلطة العثمانية فى الجزائر . ومن سوء الحظ أن عبد القادر لم يستطع أن يدرك أهمية التضامن مع نضال أحمد باى فى تلك المرحلة . لأن رغبته فى توحيد الجزائر تحت قيادته ، جعلته يرى فى الحاج أحمد منافسا خطيرا يحول دون وحدة القبائل العربية فى إقليم قسنطينة تحت قيادته . لذلك وقف موقف الحياد من نضال قسنطينة ، إذ رأى أنه إذا انهزم الحاج أحمد ، فسيتخلص من منافس كبير ، وتتهيأ الفرصة لولاء قبائل قسنطينة له ، أما إذا انهزم الفرنسيون ، فقد يغادرون الجزائر نهائيا بعد أن أنهكهم القتال فيها ، وعندئذ ينحصر الصراع بينه وبين الحاج أحمد باى على السيادة .

على أن حصار الفرنسيين لقسنطينة فشل ، وانهزمت حملة كلوزيل . وعندئذ أصدر عبد القادر أوامره بهجوم عام على المركز الفرنسية بين جبال الأطلس والساحل . ولم يكن للفرنسيين فى إقليم وهران ما يستحق الذكر ، وأصبح سهل متيجة تحت رحمته ، ونزل الألوف من العرب والقبائل وأهالى التيطرى كالسيل من الجبال ، يدمرون ويشعلون النار فى المستوطنات الاستعمارية الفرنسية ، ويأسرون المستوطنين الفرنسيين ، ويحملون الرعب والفزع معهم إلى مدينة الجزائر نفسها ، وأصبحت حالة الحاميات الفرنسية فى حالة سيئة بعد أن فرض عليها الحصار ، وتعرضت لخطر الجوع الذى أصبح يخيم فى كل لحظة .

وقد أثارت هذه الأعمال ، بالإضافة إلى نكبة قسنطينة ، جزع الشعب الفرنسى ، وأخذ كثيرون من السياسيين الفرنسيين يرون فى استعمار الجزائر

حلما من الأحلام ، واعتبروا كل العمليات الحربية التى تجرى هناك إهدارا لكثير من الدم والأموال ، ورأوا أن سياسة فرنسا الحقيقية يجب أن تكون مجرد الاحتفاظ ببعض المراكز الساحلية بهدف منع القرصنة ، وإقامة علاقات سليمة مع أهالى البلاد . وقد رفض البرلمان الفرنسى ارسال أكثر من ثلاثين ألف جندى فرنسى إلى الجزائر ، وخطب أحد زعماء الأحزاب الفرنسية يستنكر مغامرة الجزائر ، وينادى بوجوب التخلى عنها ، حتى لا يرى الفرنسيون آخر رجالهم وأبنائهم يبتلعون فى الجزائر .

فى تلك الظروف رأت القيادات العسكرية فى الجزائر أن تسرع بعقد الصلح مع عبد القادر ، حتى تتفرغ لمهاجة قسنطينة دون مضايقة من قواته ، فأجرى الجنرال بيجو Bugeaux اتصالات معه لهذا الغرض ، كما أجرى الحاكم العام دامريمون Damremont اتصالات مماثلة ، وقد طلب الجنرال بيجو من حكومته حصر المفاوضات مع عبد القادر وحده ، فقبلت ذلك .

وقد أوضح عبد القادر فى هذه المفاوضات أن العرب . لا يمكن أن يقبلوا العيش تحت سلطة الفرنسيين ، حتى ولو كانت اسمية . وأنه إذا كانت فرنسا تحاول وضع العرب تحت سيطرتها بالقوة ، فمعنى ذلك أنها ستدخل حربا لا نهاية لها . وقال انه ليس من مصلحة فرنسا أن تحاول بسط سلطانها على سكان معارضين لها تماما ، ولكن من مصلحتها أن تحصر نفسها فى المشاريع التجارية فى المدن الساحلية ، وأصر على عدم التخلى عن أى جزء من البلاد تحت سلطته ، وطلب أن يكون اقليم التيطرى داخل اطار دولته وتحت سلطته ، وطلب أيضا أن تتخلى فرنسا عن راشقون وتلمسان وقلعتها ، كما تتخلى عن المدافع ومدافع الهاون التى احتوت عليها القلعة قديما . وقال إنه لابد أن يكون كل المسلمين القاطنين فى المناطق الفرنسية الساحلية تحت سلطته الشرعية ، تطبيقا لمبدأ يعد فى نظره أولى من كل اعتبارات دنيوية ، لأنه مبدأ قائم على أساس القرآن ، وهو أنه لا يجوز لأى مسلم مهما كانت الظروف أن يستسلم إلى حكم أجنبى .

والمعنى الحقيقى لهذه الشروط التى وضعها عبد القادر ، هو وجوب اعتراف الفرنسيين به سلطانا على الجزائر ، واكتفائهم بالعيش على هامش امبراطوريته ، مستفيدين فقط من الأرباح التجارية مع رعيته .

وقد رفض الجنرال بيجو هذه الشروط المهنية ، وجمع فى بداية شهر مايو ١٨٣٧ كل قواته ، التى كانت تتكون من اثنى عشر ألف جندى ، فى معسكر التافنة ، استعدادا للهجوم على عبد القادر ، ولكنه عندما استعرض موارده الأخرى وجد أنها لا تكفى . فالحصول على حيوانات النقل من الأهالى غير ممكن ، والتموين عن طريق فرنسا غير متوقع ، وحرارة الصيف المميتة تقترب ، والوقت المحدد لحصار قسنطينة الثانى قد حان ، وقد أرسل جزءا كبيرا من جيشه للمشاركة فى هذا الحصار . وبذلك أصبح السلام مع عبد القادر – مهما كان مهينا – ضرورة لا مفر منها .

على أن عبد القادر رفض أن يتحمل وحده مسئولية اتخاذ القرار فى مسألة إبرام الصلح مع الفرنسيين . فقد دعا إلى مؤتمر عام فى ٢٥ مايو ١٨٣٧ على ضفة نهر الهبرة ، حضره كل شيوخ القبائل الكبار ، وزعماء الفرسان العسكريين ، والمرابطون البارزون ، وأعيان المحاربين فى إقليم وهران ، حيث جرت مناقشة قضية السلام والحرب مع الفرنسيين . وقد شرح عبد القادر فى هذا الاجتماع المراسلات التى جرت بينه وبين الجنرال بيجو ، وطلب رأى الحاضرين .

وقد انقسم المجتمعون إلى قسمين : قسم يطالب باستمرار الحرب مع المستعمرين ، وقسم آخر يرى أن ظروف الجزائر تقتضى التفرقة بين سلام مقبول وسلام مطلوب . وقالوا ان القرآن لم يأمر بإهدار الدم بدون جدوى ، بعد أن نادى المستعمرون بوضع السيف فى غمده ، وأن الفرنسيين قد طلبوا الصلح ، وقد أملى السلطان عليهم شروطه . وكان هذا القسم الأخير يتكون من المرابطين .

وقد اتفقت غالبية الآراء على أن الفوائد التى سيجنيها الشعب الجزائرى من

السلم تبرر الاستجابة لبعض التنازلات والتضحيات التى يطلبها الفرنسيون ، مثل التنازل عن مدينة « البليدة » ، وسهل مدينة الجزائر ، مادام كل مسلم سيكون حرا فى الانتقال من المناطق الخاضعة للفرنسيين إلى المناطق الخاضعة للسلطان ، وقد أرسل عبد القادر مندوبا عنه إلى القيادة الفرنسية على التافنة ، بموافقته على هذه الشروط .

وقد كان على أثر ذلك أن تم ابرام معاهدة التافنة بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو ، وبمقتضاها اعترفت فرنسا بالأمير سلطانا على القسم الأكبر من وهران (غرب الجزائر) وكل اقليم التيطرى (وسط الجزائر) واحتفظ الأمير بكل القلاع والمراكز الهامة فى داخل البلاد ، واصبح ندا لدولة كبرى . وانحصرت مراكز الفرنسيين فى خمسة مدن ساحلية مع المناطق المجاورة لها فى أضيق نطاق.ومن أهم ما نصت عليه المعاهدة لصالح الأمير ، المعاملة بالمثل على قدم المساواة مع الفرنسيين ، وحرية التجارة بين الأمير وفرنسا بما فى ذلك من شراء الأمير البارود والأسلحة التى يحتاجها من فرنسا ، وتبادل الممثلين .

وقد وضحت هذه المعاهدة الحدود الفاصلة بين الدولتين فى وهران والجزائر ، ولكنها سكتت عن شرق الجزائر . فإذا لوحظ أن عنابة وبجاية كانتا فعلا تحت أيدى الفرنسيين ، وأن بقية إقليم قسنطينة كان ما يزال تحت حكم الحاج أحمد ، فإن هذا يشير إلى ما كان يخبئه كل طرف للآخر من نوايا حول شرقى البلاد . فالأمير عبد القادر كان يعتقد أن المعاهدة ستجعل أهالى قسنطينة يتخلون عن الحاج أحمد وينضمون إليه ، والفرنسيون كانوا يخططون للاستيلاء على إقليم قسنطينة .

مقاومة الحاج أحمد باى قسنطينة :

أتاحت معاهدة التافنة للأمير عبد القادر الفرصة لإرساء قواعد دولة وطنية فى الجزائر ، ولكنها أتاحت للفرنسيين من جهة أخرى الفرصة للتخلص من

المركز الثانى للمقاومة فى الجزائر ، والذى كان يتمثل فى مقاومة الباى أحمد ، الوالى العثمانى فى قسنطينة .

ويختلف أحمد بك عن معظم أقرانه من الولاة العثمانيين بقوة التصميم على مقاومة الغزوالفرنسى ، فقد ولد فى قسنطينة سنة ١٧٨٠ على الأرجح ، وكان جده بايا تركيا اسمه أحمد الكولى ، وأمه من أصل جزائرى . فهو كولوغلى ، وقد بذل جهدًا كبيرًا لتعيينه بايًا على قسنطينة سنة ١٨٢٦ ، حيث جرت العادة ألا يتقلد الكراغلة Kuloglu مناصب البايلك .

وعندما هاجم الفرنسيون مدينة الجزائر ، هب أحمد باى للدفاع عنها مع قوات من الفرسان ، وقاد الجناح الأيسر للجيش الجزائرى فى أسطا والى ، ثم انسحب إلى قسنطينة ، وعندما ظهرت حركة الأمير عبد القادر رفض أحمد باى والأشراف الإقطاعيون فى شرق الجزائر النضال تحت لوائه . وعندما عرض عليه القائد العام الفرنسى للجزائر الاعتراف به ، فى حالة قبوله الحكم الفرنسى ، ودفع الضريبة - أعلن ، بمشورة أشراف المدينة ، الرفض ، واعتبروا أنفسهم فى حالة جهاد ضد الفرنسيين ، واختاروا علمًا أحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » .

وقد كتب أحمد باى إلى السلطان العثمانى يطلب منه منحه رتبة أمير الأمراء ، والعمل على استرداد ميناء عنابة من الفرنسيين ، ولكن الباب العالى تردد فى منحه رتبة أمير الأمراء ، بعد أن أعلنت فرنسا أن منح هذه الرتبة سوف يعتبر بمثابة إعلان حرب على فرنسا . ومع ذلك صك أحمد باى العملة باسم السلطان ، واستعمل لقب الباشا ، وأنزل هزيمة مهينة بالجيش الفرنسى المهاجم فى نوفمبر ١٨٣٦ .

على أنه بعد إبرام معاهدة التافنة ، اتخذت فرنسا الإجراءات لضرب حصار طويل على قسنطينة ، وأرسلت إلى أحمد باى مقترحات قاسية للصلح لدفعه إلى

رفضها ، وهو ما حدث بالفعل . وفى أوائل أكتوبر ١٨٣٧ قاد الجنرال دامريمون Damremont القائد العام والحاكم العام للجزائر ، جيشًا من عشرة آلاف ، استطاع به فتح المدينة ، وبعد حرب شوارع حامية تم احتلال المدينة فى ١٣ أكتوبر ١٨٣٧ ، ومات فى أثناء المعركة الجنرال دامريمون .

وعلى أثر ضياع قسنطينة ، انسحب أحمد باى إلى جبال الأوراس الواقعة إلى الجنوب . ولكن القوات التى معه أخذت تتضاءل حتى اضطر إلى الاستسلام فى يونيه ١٨٤٨ . وبقى فى مدينة الجزائر حتى توفى سنة ١٨٥٠ . أما الأسر الإقطاعية فى قسنطينة ، فقد اضطرت إلى قبول التعاون مع السلطات الفرنسية ، وكانت تخضع للقائد العام الفرنسى فى تلك المقاطعة رأسا .

سقوط معاهدة التافنة وتجدد الحرب :

فى ذلك الحين كانت العلاقات بين عبد القادر والفرنسيين تسوء وتتجه نحو الحرب كما كان متوقعا . فمع أن الطرفين قد وقعا معاهدة التافنة كما رأينا ، إلا أنهما اختلفا – عند التطبيق – فى تفسير الكثير من نصوصها . وكان أكبر خلاف ذلك الذى دار حول حدود كل منهما من ناحية الشرق ، حيث كانت نصوص المعاهدة فى هذا الصدد غير واضحة تماما . ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه عند توقيع المعاهدة لم تكن أوضاع الصراع بين الطرفين فى الشرق الجزائرى قد استقرت بعد ، فكما ذكرنا كانت مدينتا عنابة وبجاية فى يد الفرنسيين ، وكانت قسطنطينة ، عاصمة الشرق الجزائرى ، ما تزال تقاوم الفرنسيين تحت قيادة الحاج أحمد باى . لذلك لم يحدد الطرفان الحدود بينهما فى هذا الجزء من البلاد بدقة ، فمن ناحية الأمير عبد القادر كان يأمل فى أن تنضم إليه قسنطينة بعد إبرام المعاهدة ، ومن ناحية الفرنسيين كانوا يأملون فى الاستيلاء على قسنطينة بالقوة . على أن الفرنسيين نجحوا فى ١٣ أكتوبر ١٨٣٧ فى الاستيلاء على قسنطينة – كما رأينا – ، فأخذوا من ثم يتطلعون إلى ضم المنطقة الواقعة بينها وبين مدينة الجزائر ، وهى منطقة شاسعة جدا .

وهنا أخذ الخلاف يحتدم بين الطرفين ، فقد رفض الأمير عبد القادر الاعتراف بحق الفرنسيين فى ضم هذه الأراضى الشاسعة ، حتى لا يتيح لهم الفرصة لربط منطقة احتلالهم فى إقليم الجزائر بمنطقة احتلالهم لمنطقة قسنطينة . بينما أصر الفرنسيون على حقهم فى ضم هذه الأراضى ، حتى لا تنفصل مناطق احتلالهم فى قسنطينة عن مناطق احتلالهم فى إقليم الجزائر .

وفى البداية دارت مراسلات بين الطرفين حول هذه المسألة تحاول الوصول إلى حل سلمى ، وعندما اتضح لعبد القادر أن الجانب الفرنسى يصر على موقفه ، رأى أن يتبع سياسة الأمر الواقع ويفرض موقفه على الفرنسيين . فبحركة سريعة وقوية أخضع القبائل الواقعة على حدود اقليم قسنطينة ، الذين كان يشك فى تآمرهم مع الفرنسيين ، وبكل جرأة احتل المنطقة المتنازع عليها بين قسنطينة والجزائر ، وطلب إلى الكراغلة الذين استوطنوا هذه المنطقة قطع علاقاتهم الخائنة بالمحتلين ، وعندما رفضوا ، انقض عليهم وسحقهم ، وقطع رأس قائدهم التركى العميل ، وعين أحمد بن سالم خليفة له عليهم . ثم أسرع فاستولى على منطقة « الزاب » فى الجنوب ، وعين عليها أحد رجاله ، وهو ابن عزوز . وبذلك أصبح عبد القادر صاحب سيادة مطلقة على المناطق التى تقع بين قسنطينة وإقليم الجزائر ، والتى كان الفرنسيون يعتمدون عليها فى تموينهم بالمواد الغذائية . وقطع كل اتصال بين منطقة احتلالهم فى إقليم الجزائر ومنطقة احتلالهم فى قسنطينة .

وقد كان هذا أكبر اتساع بلغته دولة عبد القادر ، ولهذا أصبحت الحرب بينه وبين فرنسا أمرا محتوما ، فلم تكن الأخيرة لتستطيع السكوت على هذا العمل الذى يقضى على آمالها تماما فى التوسع داخل الجزائر . على أنه لما كانت السلطات الفرنسية تدرك أبعاد الخطر المترتب على حرب تخوضها مع عبد القادر ، فقد اقترح الماريشال فاليه Valée ، الحاكم العام لمدينة الجزائر ، على حكومته ثلاثة اقتراحات :

الأول - أن تقف موقف الدفاع ، وتعلن احتجاجها على احتلال الأمير

للمنطقة المتنازع عليها ، تاركة للزمن أن يلين موقفه .

ثانيا – أن تهاجمه فى الحال قبل أن يدعم قوته .

ثالثا – أن تشترك معه فى احتلال المنطقة المتنازع عليها حتى يتم الاتفاق على حل نهائى للموضوع .

وقد قبلت الحكومة الفرنسية الاقتراح الثالث مع بعض التعديلات . فقد رأت الاكتفاء بعبور قوة فرنسية للمنطقة ، بدلا من احتلالها احتلالا دائما ، لإظهار أن المنطقة ليست تحت سلطة عبد القادر . وقد عهدت بهذه المهمة إلى الدوق دورليان D'orleans ابن الملك فيليب نفسه .

وكانت الخطة الفرنسية أن تتحرك قوة عسكرية فرنسية من « ميلة » فى اقليم قسنطينة ، مارة بمضيق « باب الحديد » ، عابرة المنطقة المتنازع عليها والتى احتلها عبد القادر ، حتى تصل إلى مدينة الجزائر .

وقد أعطيت لهذه الخطة كل السرية اللازمة لخطط الحرب ، وتحركت القوة من مدينة ميلة يوم ١٨ أكتوبر ١٨٣٩ وعلى رأسها المارشال فاليه والدوق دورليان ووصلت إلى مدينة سطيف من اتجاهين متعارضين يوم ٢١ ، فأسرعت القبائل للدفاع عن نفسها ، ولكن القادة الفرنسيين خدعوا شيوخ القبائل بتصريحات مرور مزورة عليها خاتم عبد القادر . ثم تحركت القوة نحو « باب الحديد » فى منطقة جبلية صعبة ، وعبرت المضيق الهائل لباب الحديد ، ثم مرت وسط قبيلة بنى منصور . وفى يوم ٢١ وصلت بنى يغى ، وهناك حدث تبادل اطلاق النار . ولم يكن لدى بن سالم ، خليفة عبد القادر فى تلك المنطقة ، وقت كاف للاستعداد ومواجهة القوة الفرنسية . وفى أول نوفمبر دخل الدوق دورليان والمارشال فاليه مدينة الجزائر دخول المنتصرين ، واستقبلوا استقبال الفاتحين ، ودامت الاحتفالات بهذا الحادث أربعة أيام كاملة ، وأقيم احتفال ضخم فى ساحة باب الواد تكريما لأبطال باب الحديد . لقد اعتقد الفرنسيون الآن أنهم احتلوا الجزائر .

وقد وصلت أخبار عبور الفرنسيين باب الحديد إلى الأمير عبد القادر وهو فى تاقدامت ، فأسرع إلى مدينة المدية جنوب مدينة الجزائر .

وفى يوم ١٤ نوفمبر ١٨٣٩ عقد مجلسا عسكريا كبيرا برئاسته ، حضره اليهودى دوران Durand ، وهو ضابط اتصال بين عبد القادر والمارشال فاليه . وقد حاول دوران أن يثبط همة الزعماء ، وأسهب فى الحديث عن عدم نضج جيش عبد القادر ، وضعف موارده ، والاضطرابات الداخلية التى تعوق حركته فى كثير من الأحوال ، وذلك بالمقارنة مع قوة الجيش الفرنسى وانضباطه ووحدته . وقد أجاب عبد القادر قائلا : « إننى أعلم ذلك ، ولكن خلفائى ينادون بالحرب بصوت عال ، وقد أصبح شعبى يعتبرنى كافرا لأنى مازلت لم أعلن الحرب . اننى لا أرغب فى الحرب ، ولكن الفرنسيين يدفعوننى إليها » .

وقد اجتمع المجلس العسكرى مرة أخرى ، ونادت الأصوات بالجهاد من جديد ، فقال عبد القادر : « ليكن ذلك مادامت هذه رغبتكم . ولكنى لن أقبل المسئولية إلا بشرط واحد ، فإنكم ستتعرضون للمتاعب والمشقة والمحن وخيبة الأمل ، وقد يتملككم اليأس ، أو تتعبون من الحرب . فاقسموا لى على القرآن الكريم أنكم لن تتخلوا عنى أبدا مادمت أحمل راية الجهاد » . فأقسم له جميع الشيوخ والخلفاء .

وفى يوم ١٨ نوفمبر ١٨٣٩ أعلن عبد القادر الحرب رسميا على الفرنسيين ، وكتب الى المارشال فاليه يقول : « لقد سبق أن أخبرتكم أن جميع العرب من حدود المغرب إلى حدود تونس مجمعون على الجهاد ، ويجب على طبقا لشريعتنا أن أخضع للاجماع . فأرسلوا إلى قنصلى فى وهران ، وكونوا مستعدين . فالمسلمون جميعا قد أعلنوا الجهاد . ومهما حدث فلن تستطيعوا اتهامى بنقض العهود » .

ولم يلبث عبد القادر أن أعلن التعبئة العامة لجيوشه . وفى خلال وقت وجيز

بدأت تتدفق من فوق مرتفعات بنى صالح أعداد غفيرة غطت سهول مدينة الجزائر ، وأخذت أفواج جديدة تنضم إلى تلك الحشود قادمة من الجبال المجاورة ، وأخذت تنحدر كأنها انهيارات الثلج الضخمة صوب سهول مدينة الجزائر . وفى الوقت نفسه عبر خليفتا المدية وملیانة نهر الشلف على رأس جيوشهما ، وفرض ابن سالم الحصار على المراكز والمستعمرات الفرنسية المنعزلة فى الشرق ، بينما كانت جيوش أخرى تأتى من الغرب تملؤها الرغبة والحماسة للقتال .

وسرعان ما هوجمت المستعمرات الفرنسية والمؤسسات الزراعية والمزارع النموذجية والمراكز الفرنسية المنتشرة ، وغطى دخان القرى المحترقة الجو ، وتعرض المستعمرون الفرنسيون لمذابح كبيرة فى معظم القرى ، وطوردوا حتى أبواب مدينة الجزائر نفسها .

وفى مدينة الجزائر انتشر الذعر كالعاصفة الهوجاء ، وهدد الأهالى هناك بالثورة ، وانتشرت الاشاعات بأن عبد القادر قادم على رأس جيش عرمرم تعداده ٣٠,٠٠٠ مقاتل ، تسبقه طليعته التى تبلغ ٥٠٠٠ جندى لتلغيم أسوار المدينة . فجلا الناس فى الضواحى عن منازلهم ، وأخلى المارشال فاليه منزله ، ونصبت المتاريس فى الطرقات ، واستمر الخوف والهلع طيلة أسابيع ، وقلت المواد الغذائية فى الأسواق ، وضاعفت المجاعة من مشاعر اليأس والخوف .

على أن الموقف لم يلبث أن انقلب حين أراد عبد القادر اختبار قوته ، عن طريق مهاجمة الفرنسيين طبقا لمبادئ فن الحرب الأوربى ، وأمر قواته بمهاجمة قلعة بودورو . فقد شتتت المدافع الفرنسية صفوفهم وأجبروا سريعا على الفرار . وبسرعة دعم الماريشال فاليه قواته فى مدينتى البليدة وبوفاريك ، على أقدام جبال الأطلس ، وأرسل وحدات عسكرية لحماية ما بقى من المستعمرات المخربة ، ووصلت إليه التعزيزات بسرعة من حكومته ، فبلغ ما تحت تصرفه ٣٠,٠٠٠ محارب ، وقرر الاستيلاء على المراكز التى أقامها عبد القادر

وتخريبها ، بما فى ذلك مخازن اسلحته ومستودعات تموينه ، ومهاجمة وسحق جنده النظامى ، الذى يعد العمود الفقرى لقواته ، ثم الاحتلال الدائم للمقاطعات الآهلة بالقبائل العربية الرئيسية ، حتى تقتنع بعجز السلطان عن حمايتها والدفاع عنها ، وبالتالى تحطيم سلطته ونفوذه فيها .

ثم ركز المارشال فاليه قواته فى البليدة ، على أقدام جبال الأطلس الصغرى ، استعدادا للهجوم على المدية ومليانة . وفى يوم ٢٧ أبريل ١٨٤٠ عبرت قواته نهر الشفة ، وتمكنت من هزيمة قوات عبد القادر التى تصدت لها فى « مضايق المزاية » الجبلية ، ورفع العلم الفرنسى على أعلى قمم جبال الأطلس . وتلا ذلك احتلال مدينتى : المدية ، التى كانت مهجورة ونصف محروقة ، ومليانة .

وقد استفاد عبد القادر من هذه الهزائم فى تغيير خطته فى القتال . فقرر عدم مواجهة الفرنسيين وفقا لأساليب فنون الحرب الأوربية ، وأصدر تعليماته إلى خلفائه وشيوخه بتحاشى مواجهة الفرنسيين مرة أخرى بقوات ضخمة ، والاقتصار على مناوشتهم ، ومطاردة أجنحة جيوشهم ، وتعقب مؤخراتهم ، وقطع خطوط مواصلاتهم ، والهجوم على معداتهم ووسائل نقلهم ، والتراجع الخادع ، ونصب الكمائن . وتمكن بذلك من تغيير الموقف لصالحه .

ولم يلبث أن فرض الحصار على مدينتى المدية ومليانة ، وأخذ العرب والقبائل فى المناطق المجاورة يهاجمون القوات الفرنسية الباحثة عن المؤن ، ولم تفد محاولات الفرنسيين للخروج من هذا الحصار . وخلال شهر أكتوبر ١٨٤٠ أوشك معسكر مليانة أن يتلاشى تحت عوامل الجوع والحمى ، ومات نصف الجنود ، ودخل ٥٠٠ منهم المستشفى ، وأصبح الباقون هياكل متحركة .

وعلى هذا النحو ، لم يستطع عبد القادر فقط إيقاف تقدم الفرنسيين فى جبال التيطرى ، بل أبقاهم تحت رحمته ، من حدود المغرب إلى حدود تونس . وكان قادرا فى معظم الأوقات على إعاقة تحركاتهم ، وإحباط جهودهم ، وكانت

تحركاته سريعة ومفاجئة ، فهو اليوم ينقض على الفرنسيين ، وفى الصباح التالى فى منطقة بعيدة على مسافة أميال ، يستنهض همة قبيلة عربية خارت عزيمتها . فكأنما أصبح جسده شيئا روحانيا لا يكل ولا يهدأ من فرط الحماس الذى يشتعل فيه .

الجنرال بيجو وخطة الطوابير المتحركة :

على أن الحرب الحقيقية والحاسمة لم تبدأ إلا فى سنة ١٨٤١ ، حين تولى الجنرال بيجو منصب حاكم عام الجزائر يوم ٢٢ فبراير ١٨٤١ ، وكان من أنصار فكرة توسيع الاحتلال الفرنسى ، وسحق كل قوة تتصدى له ، وقد وضعت حكومته تحت تصرفه قوة ضخمة تتكون من ٨٥ ألف محارب .

وقد قرر بيجو التخلى عن الخطط العسكرية التى كان يتبعها أسلافه ، والتى كانت تقوم على تركيز القوات ، وعدم السماح لها بالانسحاب مهما كان الثمن . واتبع خطة جديدة تعتمد على الطوابير المتحركة التى تهاجم فى جميع الجبهات ، وعلى مرونة الهجوم والانسحاب عند اللزوم ، والتخفف من المعدات الثقيلة والمدافع الكبيرة - وبعبارة أخرى أنه اتبع خطة عبد القادر ووسائله فى الحرب !

ولما كان عبد القادر قد بقى - مع ذلك - يمتاز على الفرنسيين بأن قواته لاتحمل مئونتها ، وإنما تعتمد فى غذائها أينما حلت على مخازن الحبوب التى أقيمت فى كل مكان تحت الأرض - فقد قرر بيجو أن يفعل نفس الشىء ، ويكفى طوابيره حمل مئونتها ، معتمدا فى ذلك على نفس مخازن عبد القادر ! فكان رجاله يحملون معهم المطاحن اليدوية الصغيرة ، حتى إذا ماوصلوا إلى مكان ما ، أخذوا ينقبون بحرابهم وسيوفهم فى الأرض بحثا عن المخازن التى لم تكن مغطاة إلا بطبقة رقيقة من التراب ، ثم يخرجون مابها من حبوب ، يقومون بطحنها وتحويلها إلى دقيق عن طريق المطاحن اليدوية . وبهذه الطريقة أصبحت القوات الفرنسية تمون نفسها فى المكان الذى تتواجد فيه .

وقد واجه عبد القادر هذه الخطة بالتخلى عن قلاعه جميعا ، حتى لايضيع جهود قواته بلا طائل فى محاولات الدفاع عنها . وأصبحت المدن المحصنة بالنسبة لأسلوب قتاله الجديد عبئا ثقيلا يرحب كثيرا بالتخلص منه . وفى الوقت نفسه كان لايكف عن شن الحرب النفسية على خصمه الجنرال بيجو . فقد كتب إليه فى تلك الفترة التاريخية يقول :

« لتحرق ولتخرب ماتشاء من حرثنا ، ولتنهب ماتشاء من مخازن حبوبنا ، فإن ذلك لن يعنى شيئا بالنسبة لنا . ان الأراضى التى تأخذها منا ليست سوى قطرة فى بحر ، وإننا سنطارد قواتك وسننهكها ونشتتها ، وسيكمل الطقس بالنيابة عنا البقية . هل تتوقف الموجة عن التصاعد والتضخم إذا لامسها طائر سريع ؟ . تلك هى صورة مروركم فى إفريقية » !

وقد أثمرت خطة عبد القادر ، فان الخسائر التى منيت بها القوات الفرنسية بسبب الكر والفر ، والمعارك المتواصلة ، والحرارة القاتلة كادت توردها مورد الفناء . وفى نهاية سنة ١٨٤١ كان فى وسع الجنرال بيجو أن يعلن أن الجنود الذين كانوا تحت قيادته ، لم يتبق منهم سوى أربعة آلاف قادرين على خوض القتال .

ومرة أخرى حاولت الحكومة الفرنسية التوصل إلى اتفاق مع عبد القادر ، على أساس رفع الحصار عن الحاميات الفرنسية وإلقاء السلاح ، فى مقابل الاعتراف بكل حقوقه السابقة وإعادة كل الأراضى التى كانت له . ولكن عبد القادر ضحك من هذه المقترحات قائلا : « دع الفرنسيين يحتفظون بالمدن . هل تستطيع المدن أن تعطيهم الطعام ؟ . إننا مادمنا نسيطر على داخلية البلاد ، وفى استطاعتنا مهاجمتهم وتعطيل قوافلهم ، فإن وضعنا سيكون أكثر تفوقا » .

على أن بيجو لم يلبث أن أخذ فى إنشاء مراكز عسكرية دائمة فى قلب المجتمعات العربية القبلية ، لتنطلق منها الطوابير المتحركة لضرب المقاومة

وإثبات حضورها السريع فى كل وقت . كما قرر اتخاذ إقليم وهران مسرحا أساسيا لعملياته العسكرية ، باعتباره القاعدة التى يستمد منها عبد القادر قوته . فاحتل الجنرال لامور سيير Lamorciere مدينة معسكر ، واحتل الجنرال بيدو Bedeau تلمسان ، وأخذ الجنرال شانجار نييه Changarnier فى مراقبة حدود سهل مدينة الجزائر من الناحية الغربية ، وهدد الجنرال ديتبول D,Hutpoul « التيطرى » . وأرسلت ثلاثة طوابير متحركة من وهران ومستغانم لإخضاع القبائل الواقعة بين البحر وجبال الأطلس والتى تقع فى اتجاه الصحراء .

وكانت مهمة الطابور الذى يقوده لامور سيير مطاردة السلطان عبد القادر نحو الجنوب ، لعزله عن هذه القبائل ومحاولة اقتناصه . ولكن مهمته باءت بالفشل بفضل مهارة عبد القادر الذى كان يعتمد على سرعة الحركة والمفاجأة . فكان يتسرب بين طوابير العدو ، ويمرق فى مقدمتهم ، ويحوم حول أجنحتهم ، ويهاجم مؤخرتهم . وكان الأعداء يجدونه مرة فى السهول ومرة فى الجبال ، ينقض بسرعة ، ثم يختفى عن الأنظار !

الزملة La Smala :

على أنه رغم هذه الجهود الهائلة التى بذلها عبد القادر لإحباط خطط أعدائه المستعمرين ، ووقف انتشار روح التخاذل والهزيمة فى الداخل ، إلا أن مثابرة الفرنسيين على القتال ، وتعويضهم المستمر لخسائرهم فى الأرواح والمعدات والسلاح ، وتزايد حجم جيوشهم – قد جعل كفة القتال مع مرور الوقت تميل لصالحهم . فقد تعرضت كل مراكز عبد القادر الثابتة للغزو والتخريب ، كما أن « القيطنة » مسقط رأسه ، قد هوجمت وخربت ، وأصبح أعضاء أسرته مشردين . ومما زاد الطين بلة أن عائلات أتباعه المخلصين أصبحت عرضة باستمرار للهجوم عليها ، ليس فقط من جانب المستعمرين ، الذين اعتدوا على حرمات النساء من أجل الانتقام ، بل وأيضا من جانب الخارجين على عبد القادر .

وعند ذلك تفتق ذهن عبد القادر عن فكرة مثيرة ، هى تجميع نساء المجاهدين وأطفالهم وشيوخهم وعجزتهم فى معسكر واحد ضخم متنقل يتبعه فى جميع تحركاته ، سواء فى تقدمه نحو المناطق المتمدنة ، أو فى تراجعه نحو الصحراء ، وبحيث يمكن الدفاع عنه وحمايته باستمرار .

وقد أطلق على هذا المعسكر العظيم اسم « الزَمَلة » . ومع مرور الوقت أصبحت الزَمَلة بمثابة مدينة ضخمة متنقلة يقدر سكانها بنحو ٢٠,٠٠٠ نسمة ، ثم بلغت مايقرب من ٦٠,٠٠٠ نسمة ! . وكان العرب يرسلون إليها مقتنياتهم الثمينة ، وقطعان مواشيهم ، ونساءهم وأطفالهم وشيوخهم .. وعندما تكون « الزَمَلة » فى الصحراء ، كانت خيامها تمتد وتتسع وتترامى وراء الأفق البعيد . وعندما تكون فى التل ، كانت الخيام تملأ السهول وتغطى منحدرات الجبال .

وكانت « الزملة » منظمة حسب ترتيب عسكرى محكم ، فكانت مقسمة إلى « دوائر » أى مجموعة من العائلات ذات النسب المشترك ، وكل « دائرة » لها خيامها التى كانت تختلف عددا حسب قوة كل منها ، ولها رئيس ، مركزه معروف ، وله وظيفة معينة تبعا لمكانته أو الثقة التى يوحى بها . وكانت الدوائر موزعة على أربعة مخيمات كبيرة . وقد عين عبد القادر أربع قبائل لمراقبة وحماية وإرشاد « الزملة » أثناء تحركها ، كما عين جندا نظاميين لحراستها . وكانت الزملة » تحتوى على حرفيين مهرة فى الدروع والسروج وغيرها من الحرف الضرورية لحياتها اليومية وأمور معيشتها . وكانت تقام فيها سوق عظيمة يؤمها الكثيرون ، وكانت الحبوب تجلب إليها من قبائل الشمال .

وكان نظام التعسكر فى « الزملة » منظما تنظيما دقيقا ومحترما من الجميع . وعندما كان عبد القادر يضرب خيمته فى الزملة ، كان كل فرد فيها يعرف المكان الذى يشغله من هذه الخيمة . ونظرا لكبر حجم « الزملة » التى كانت أشبه بعاصمة كبيرة ، فحيثما حلت فى منطقة ، كانت مياه الآبار والجداول فيها تنضب !

وقد أصبحت الزملة مع مرور الأيام أداة لتوحيد القبائل حول عبد القادر ، بعد أن أصبحت تضم نساءها وأطفالها وشيوخها وقطعانها . كما أصبحت أيضا وسيلة مراقبة قوية ضد هروب بعض القبائل ، حتى لاتفقد أغلى ماتملك . وبذلك أصبحت محركا سياسيا عظيم الأثر فى يد السلطان عبد القادر .

نكبة « الزملة » :

على أن الفرنسيين لم يلبثوا أن أدركوا مدى أهمية الزملة فى تدعيم قوة السلطان ، وعرفوا قيمتها كمخزن متنقل لثروة طائلة . فأصبحت هدفا أساسيا لنشاطهم العسكرى ، وأصبح كبار الضباط وصغارهم حريصين على اكتشاف موقعها ، والاستيلاء على هذه الغنيمة الهائلة .

وفى ربيع عام ١٨٤٣ بدأ الجنرال لامور سيير الحملة باحتلال « تاقدامت » ، وكان هدفه « الزملة » . ولكن عبد القادر عرف من جواسيسه بهذا الهدف ، فظل فى كمين لمدة عشرين يوما ، ومنع كل اتصال به حتى لايكتشف أحد مكانه . وكان ورفاقه يعيشون على ثمار البلوط ، ويطعمون الخيل ورق الأشجار . وفشل لامورسيير فى الكشف عن « الزمله » .

على أن الخيانة فعلت فعلها على يد الشيخ عمر بن فراح ، من بنى عياد ، الذى عرض خدماته على الفرنسيين لارشادهم إلى المكان الذى تعسكر فيه « الزملة » . وسرعان ماوضعت الخطة لمهاجمتها ، واختيرت الكتيبة المعسكرة فى « المدية » للقيام بهذه المهمة . وكلف الدوق دومال D,Aumale ابن الملك لويس فيليب ملك فرنسا ، للقيام بالتنفيذ .

وفى يوم ١٠ مايو ١٨٤٣ ، غادر الدوق دومال مركز بوغاز على رأس جيش تعداده ١٣٠٠ من المشاة ، و ٦٠٠ من الفرسان ، ومدافع ميدان . وأعلن الشيخ عمر أن « الزملة » موجودة فى « الكوجيلة » ، ولكن حين وصلت القوات

الفرنسية هنا كانت « الزملة » قد غادرتها ، ولم يعرف مكانها أحد ، وظل الفرنسيون يبحثون دون جدوى ، وهبت عليهم رياح السموم العاتية ، فأرهقت المشاة إرهاقا شديدا حتى توقفوا عن السير . وتقدم الدوق دومال بعض الأميال على رأس فرسانه فقط .

وفى فجر يوم ١٦ مايو ١٨٤٣ ، جاء الشيخ الخائن مسرعا على ظهر فرسه . معلنا أن « الزملة » عند « نبع طاقين » . وفى الحال أصدر الدوق دومال أمره إلى فرسانه بالسير إلى المكان . وهناك كانت خيام الزملة تترامى أطرافها بين « نبع طاقين » إلى « جبل عمور » ، وكان أهلها لايقلون عن ستين ألفا .

وارتدى الجنود الفرنسيون ملابس جنود الصبائحية ، وهم جند عبد القادر غير النظاميين ، ببرانيسهم الحمراء ، وأقبلوا على « الزملة » ، التى اعتقد أهلها أن هؤلاء الجند عائدون ، واستقبلتهم النساء بالزغاريد ترحيبا واحتفاء بهم . وأخذ هؤلاء الجند فى الانتشار فى ذلك البحر من الخيام ، وفجأة أخذوا فى إطلاق النار !

وتلت ذلك حالة من الفوضى التى لاتوصف ، شلت جميع الجهود التى بذلت لاستعادة النظام والدفاع عن الزملة ، وأطلق الحرس ، الذى كان تعداده خمسمائه جندى نظامى ، بنادقهم مرة واحدة وفروا ! . وحاول فريق من بنى هاشم الوقوف فى وجه التيار بشجاعة ، ولكن الفرنسيين اكتسحوهم وسط حالة الفزع التى انتابت النساء والأطفال والشيوخ ، بينما ساد الهرج والمرج الإبل والخيول والبغال والثيران والأغنام .

وكانت مكاسب هذا النصر الرخيص لاتقدر بثمن ، وقد تمثلت فى أسر عائلات أكبر قواد عبد القادر نفوذا - فيما عدا عائلته الخاصة التى تمكنت من الفرار - وآلاف الحيوانات من مختلف الأنواع ، ومكتبة عبد القادر النادرة المكونة من أندر المخطوطات العربية وكانت قيمتها تقدر بخمسة آلاف جنيه

استرلينى ، وصندوقه الذى كان يحتوى على ملايين الفرنكات ، فضلا عن صناديق خلفائه وقواده التى وضعوها فى « الزملة » حفظا لها ، وكانت مليئة بالنقود الذهبية والفضية والحلى الثمينة .

وقد وصلت أنباء هذه النكبة إلى عبد القادر بينما كان كامنا فى موقعه فى حراج سرسو المجاورة « لتاقدامت » Tagdempt يراقب الحامية الفرنسية بوهران ، التى كان يعتقد أن عليه أن يخشى خطرها بالدرجة الأولى ، فزلزلته الصدمة ، ورأى فيها نذيرا بسوء الطالع ومزيدا من النكبات . وقد تجمع قواده وضباطه ورجاله فى وحدات خارج خيمته ، وكثير منهم فقد كل شىء : نساءه وأطفاله وأمواله . وحين خرج عليهم عبد القادر من خيمته ، تجمهروا حوله وقد ضاعت الكلمات من شفاههم . وكم كانت دهشتهم حين رأوا عبد القادر يرتفع بهامته فوق المصيبة ، ويستمد منها وقودا جديدا للمقاومة ضد المستعمرين . فقد وقف يقول :

« الحمد لله . أن كل هذه الأشياء العزيزة التى فقدتها والتى شغلت عقلى كثيرا . لم تزد عن أنها عاقت حركاتى ، وحولتنى عن الطريق الصحيح . والآن سأكون حرا فى محاربة المستعمرين . لماذا يجب علينا أن نحزن ونشكو ؟ أليس كل الذين أحببناهم وفقدناهم الآن فى الجنة ينعمون ؟

وفى اليوم التالى كتب عبد القادر إلى خلفائه يقول : « ان الفرنسيين قد قاموا بغارة على « الزملة » . وعلينا ألا نفقد شجاعتنا ، فسنكون من اليوم أخف حملا وأفضل استعدادا للجهاد » . وهكذا فى أحلك الظروف أوقد عبد القادر شعلة الأمل فى صدور رفاقه بعد أن كادت تخبو .

لم يستطع الفرنسيون أن يأسروا من « الزملة » أكثر من ثلاثة آلاف أسير ، نظرا لقلة عدد جنود الحملة ، أما بقية الزملة فقد تفرقت فى مختلف الاتجاهات ، فوقع البعض فى أيدى لامور سيير ، الذى سارع لمطاردتهم ، ووقع البعض

الآخر أسيرا فى يد بعض القبائل العربية التى سلبتها ماكان عندها ، وكان فى طليعة القبائل التى طاردت « الزملة » مصطفى بن اسماعيل ، ولكنه لقى حتفه بينما كان يجتاز منطقة فليتة جزاء له على خيانته ، فقد هوجم وأطلق عليه النار وقطعت رأسه وحملت إلى مركز قيادة عبد القادر ، فتفرس فيه برهة ثم أمر بأن يرمى به إلى الكلاب .

استمرار مقاومة عبد القادر :

بعد نكبة الزملة ، حاول عبد القادر إعادة تنظيمها من جديد ، لاستعادة نفوذه ، وبث الثقة العامة فى قومه مرة أخرى . ولكن جهوده منيت بالفشل . لقد كانت الآثار المعنوية للاستيلاء على الزملة من الجسامة بحيث لم يتمكن عبد القادر أبدا من التغلب عليها فى نفوس الناس . وأخذت الأخبار تصل إلى عبد القادر يوميا عن انسحاب قبائل كبيرة ذات نفوذ من المعركة ، بل وانضمامها إلى أعداء البلاد علانية .

ومع ذلك فقد تلت نكبات أخرى أشد وأقسى . فقد فقد عبد القادر الكثير من خلفائه وقواده المخلصين فى كثير من المناطق ، بعد سقوطهم فى ميدان الشرف والاستشهاد ، أو وقوعهم فى الأسر . وعندما جرد عبد القادر من هذه الدعائم القوية ، أخذت دولته تفقد تماسكها ، وسقطت أقاليمه البعيدة فى يد الفرنسيين .

وقد حاول الاتفاق مع انجلترا على أن يترك لسيادتها المدن الساحلية ، فى مقابل مساعدته على طرد فرنسا من الجزائر . ولكن انجلترا رفضت . فحاول الاستعانة بالسلطان العثمانى على أساس الاعتراف بسيادة الخليفة العثمانى ، فى مقابل نجدة تصل منه على وجه السرعة . ولكن السلطان العثمانى لم يستجب لذلك .

ثم حاول عبد القادر الاستعانة بالسلطان عبد الرحمن ملك المغرب ، ووجه إليه خطابا ألح عليه فيه أن يسخر كل موارد وقوات دولته لخدمة القضية المشتركة ، منوها بالخطر المشترك الذى تتعرض له كل من الجزائر والمغرب قائلا : « إذا احتل الفرنسيون الجزائر كلها ، ألن يكون من السهل عليهم إيجاد المبررات للاعتداء على المغرب كما وجدوا المبررات للاعتداء على الجزائر ؟ » . وكان من المبررات التى ساقها ليقنع ملك المغرب بالمساعدة ، أن القبائل العربية التى ضعفت عزيمتها مؤقتا لو رأت جيوش المغرب قادمة لدخول المعركة ، فستنهض عزيمتها ويثور حماسها من جديد ، وتتوحد صفوفها ضد الخطر الفرنسى . ولكن الملك عبد الرحمن ، الذى كان بدوره يخشى الفرنسيين ، رفض مساعدة عبد القادر ، متوهما أنه بهذا الامتناع يحمى عرشه من الخطر .

على أنه من سوء حظ السلطان عبد الرحمن أن وضع عبد القادر على الحدود المغربية ، كان يجعل التصادم بين فرنسا والمغرب أمرا لامناص منه . ذلك أن عبد القادر كان قد جعل من حدود المغرب فى ذلك الحين قاعدة لغزواته فى الجزائر ، وكان ينسحب عند اللزوم إلى الأراضى المغربية ، التى كانت عواطف أهلها تتقد حماسة وإعجابا بالبطل الجزائرى الذى لايقهر ، والذى شرف بلادهم بجعلها ملجأ له عند الحاجة . لذلك رأى الفرنسيون أنهم لن يستطيعوا قهر عبد القادر إلا بالضغط على المغرب حتى يمتنع عن إيواء عبد القادر ووجهوا إنذارا إلى السلطان عبد الرحمن بهذا المطلب ، وعندما رفض قاموا فى شهر يونية ١٨٤٤ باحتلال مدينة وجدة المغربية على الحدود بينها وبين الجزائر ، فاضطر السلطان المغربى إلى خوض الحرب دفاعا عن كيان سلطنته ، ولكن جيوشه انهزمت هزيمة منكرة فى معركة وادى إيزلى يوم ١٤ أغسطس ١٨٤٤ ، وقامت البحرية الفرنسية فى اليوم التالى بضرب مدينة طنجة وميناء موجادور على ساحل الأطلنطى ، وفرضا على السلطان عبد الرحمن معاهدة تقضى باعتبار عبد القادر خارجا على القانون فى جميع أنحاء الدولة المغربية والجزائر ، ووجوب مطاردة القوات المغربية له فى أرض المغرب ، كما تطارده القوات الفرنسية فى أرض الجزائر .

ومنذ ذلك الحين تضاعف أعداء عبد القادر . فلم يعد عليه فقط مواجهة القوات الفرنسية فى الجزائر ، أو القبائل المنشقة عليه وانضمت إلى الأعداء ، بل أصبح عليه مواجهة القوات المغربية التى أصبحت تعتبره ، بحكم المعاهدة مع فرنسا خارجا على القانون .

وخلال ربيع عام ١٨٤٤ ، انتهز عبد القادر فرصة تركز الجيش الفرنسى على الحدود المغربية لمحاربته ، وقام بتسرب سريع إلى أقاليم التل حتى وصل إلى تيارت ، وأخذ يدعو القبائل إلى الجهاد ، ويستدعى زعماءها إلى الاجتماع به ، ويحاول الحصول منها على مقاتلين لتعزيز قواته العسكرية . ولكن نداءاته لم تلق سوى استجابة ضعيفة ، لأن انتشار القوات الفرنسية فى جميع أرجاء الجزائر ، وانقضاضها السريع ، قد أرهب القبائل وأثر تأثيرا بالغا فى معنوياتها وروحها الوطنية ، ولذلك عاد عبد القادر إلى دائرته وهو فى حالة قنوط شديد .

الحرب بين عبد القادر وسلطان المغرب :

على أن ظروف مطاردة الفرنسيين لعبد القادر واشتدادها مالبثت أن دفعت عبد القادر إلى أن يعسكر على وادى ملوية فى المغرب . ولم يكن يأمل فى ذلك الحين فى أكثر من عدم التعرض له بالأذى من جانب القوات المغربية . وكان يطمع فى شىء من الراحة والهدوء . ولكن السلطان عبد الرحمن ، تحت ضغط الفرنسيين ، سارع إلى مطالبته بالانسحاب الفورى بدائرته من الحدود المغربية . وقد أثارت هذه الرسالة غضب قواد عبد القادر وقرروا عدم الاستجابة لمثل هذا الطلب ، وقالوا : « لقد أقسمنا على النضال حتى الموت ، ونحن متعهدون لاتباعك إلى أى مكان تختار ، ولكن لن نتبعك إلى الجزائر » .

وسرعان ماصدرت تعليمات السلطان المغربى إلى القبائل المغربية بمضايقة

دائرة عبد القادر وعدم التبادل التجارى معها ، ورفض بيع المواد الغذائية لها . ثم أخذت هذه القبائل فى مهاجمة من يخرج من أفراد الدائرة إلى الفلا ونهبهم .

واضطر عبد القادر إلى استخدام القوة فى معاملة هذه القبائل ، فأمر قواته ، التى تتكون من ١٢٠٠ فارس و٨٠٠ من المشاة ، بحراسة المنطقة من جميع الجهات ، ورد المغيرين على أعقابهم ، ومطاردتهم إلى خيامهم وإحضارهم إلى الدائرة ومعاقبتهم . وبهذه الطريقة تحسن موقفه ، وتهاطلت عليه المواد الغذائية ، بل إن أكثر من قبيلة طلبت الانضمام إلى الدائرة ، كما أرسلت قبيلة بنى حميان ذات النفوذ تأييدها لعبد القادر .

وعندما تبين السلطان عبد الرحمن أن استخدام القبائل المغربية لم يعد مجديا ، أرسل فى يوليو ١٨٤٧ قوة كبيرة من جنده تحت قيادة ابن أخيه مولاى هاشم والقائد الحمراء لمهاجمة عبد القادر . وكانت دائرة عبد القادر معسكرة فى وادى سلاف على حدود قبائل الريف . وبدأ الأمير بإرسال قوة استطلاعية ، ولكن مدافعى الدائرة فى المراكز الأمامية ردوهم على أعقابهم . وأرسل عبد القادر إلى الأمير هاشم يطلب تفسيرا لهذا العمل العدوانى ، فرد الأمير عليه بعنجهية وسخرية ، ولم يتوان عبد القادر عن الرد بطريقته الخاصة ، ففى نفس الليلة انقض على المعسكر المغربى انقضاضا صاعقا ، وألحق به هزيمة ساحقة ، وقتل القائد الحمراء ، ونجا مولاى هاشم بأعجوبة ، وغنم عبد القادر غنيمة ضخمة ، وكمية من المال بلغت ألفى جنيه إنجليزى ، وكمية من المعاطف والبرانيس الفاخرة التى كان الأمير المغربى يحملها لتوزيعها على شيوخ القبائل واغرائهم بالانضمام إليه .

وعندما عاد عبد القادر إلى الدائرة ، وجد أن بنى قلعية قد انتهزوا فرصة غيابه ، وأغاروا على معسكره ، وحملوا معهم كل الإبل . فلم يسترح لحظة واحدة ، بل طارد المغيرين ، وقتل منهم حوالى مائة ، وأسر جميع شيوخهم .

ولم يلبث نشاط عبد القادر أن أزعج السلطان عبد الرحمن وبعث فى قلبه

الرعب ، واعتقد أن عبد القادر سوف يهاجم قصره وينحيه عن العرش . فأصدر أمرا سلطانيا يقضى بأنه : « على عبد القادر إما أن يستسلم شخصيا إلى السلطان عبد الرحمن ، أو يعود إلى الصحراء الجزائرية . وفى حالة الرفض أو التأخير ، يزحف الجيش السلطانى ضده . وهكذا انقطع آخر أمل يربط بين عبد القادر والسلطان عبد الرحمن .

ولم تلبث الحرب أن نشبت بين الفريقين . ففى يوم ٩ ديسمبر ١٨٤٧ وصلت أنباء إلى عبد القادر الذى كان معسكرا بدائرته فى « اقدين » على الضفة اليسرى لوادى ملوية ، تفيد بأن ولدى السلطان عبد الرحمن ، وهما مولاى محمد ومولاى سليمان ، على مسافة ثلاث ساعات فقط من موقعه ، على رأس جيش قوامه ٥٠,٠٠٠ جندى ، مقسم إلى ثلاث فرق كبرى ، تفصل كلا منها عن الأخرى مسافة نصف ميل . وكانت الفرقة الأولى مكونة فى معظمها من العرب الاحتياطيين ، كقبائل الريف وبنى سناسن وغيرهم ، وقد عسكرت بالقرب من قلعة سلوان الأثرية .

ورأى عبد القادر أنه إذا انتظر هذا الجيش حتى يهاجمه ، فستقع دائرته لامحالة فى قبضته ، فقرر مهاجمته فى الحال بقواته الصغيرة ، حتى ولو بدا هذا العمل انتحاريا .

وفى اليوم الحادى عشر من ديسمبر ، وفى سكون الليل ، تحرك عبد القادر بقواته الصغيرة التى لم تكن تتجاوز ١٢٠٠ فارس و٨٠٠ راجل ، وقد وضع فى مقدمة قواته جملين محملين بالحلفاء ومطليين بالقطران والقار ، ولم يكد يصل إلى الفرقة الأولى بعد مسيرة ساعتين ، حتى أمر بإشعال النار فى الحلفاء المحملة على ظهر الجملين ، فانطلق الجملان وقد اشتعلت فيهما النار بجنون عظيم نحو الفرقة المغربية ، يتبعهما فرسان عبد القادر وهم يصيحون صيحة الحرب ، بينما كانت مشاة عبد القادر تطلق النيران . واستيقظت الفرقة الأولى على ظلام الليل وقد تحول إلى نور بفضل الوميض المنبعث من الجملين المحترقين وهما

ينطلقان كشهابين مارقين بسرعة خارقة ، تحيط بهما سهام النار المتطايرة من قوات عبد القادر ولمعان السيوف . واندفع رجال الفرقة الأولى فى كل اتجاه كأن أبواب جهنم قد فتحت عليهم ، متخلين عن أسلحتهم وخيامهم ومقتنياتهم . وكانت هزيمة ساحقة .

ولم يتوقف عبد القادر ، فقد واصل وفرسانه مسيرتهم حتى التقوا بالفرقة الثانية ، فأخذوها بدورها على غرة ودخلوا معها فى اشتباك مميت ، ومزقوها شر ممزق .

ثم انطلقوا فى أعقاب ذلك للقاء الفرقة الثالثة ، ووصلوا إليها فى أقل من نصف ساعة ، وباغتوها قبل أن يجد الأميران الفرصة لتنظيم صفوفهما ، وكان هدف عبد القادر المضى قدما إلى خيامهما وأسرهما ، ولكنه لم يتمكن من ذلك بسبب ستار كثيف من نيران المشاة والمدفعية أجبرته على التخلى عن هدفه . وفى منتصف النهار تحرك خمسة آلاف فارس مغربى للهجوم ضده ، فتركهم عبد القادر يتقدمون بينما كان يتربص بهم على مرتفع مجاور ، وعندما وصلوا إلى مدى إطلاق النار انقض عليهم برجاله ، وتمكن من تشتيتهم ، ثم عاد بفرسانه إلى وادى ملوية عند الغروب .

تحطيم مقاومة عبد القادر :

فى ذلك الحين كانت مقاومة عبد القادر قد وصلت إلى نهايتها تقريبا ، بعد أن أثقله النضال ضد جبهات ثلاث : جبهة الفرنسيين ، وجبهة القبائل التى نكثت العهد وتخاذلت عن الكفاح ، وجبهة السلطان عبد الرحمن . وبالنسبة للجبهة الفرنسية فإن الفرنسيين ، منذ أن استأنف عبد القادر نشاطه العسكرى ، كانوا قد جلبوا إلى الجزائر من التعزيزات مابلغ بعدد قواتهم إلى نحو ١٢٠,٠٠٠ جندى ، وبذلك أصبحت هناك أربع عشرة فرقة كبيرة ، كل منها مزودة بمشاتها

وفرسانها ومدفعيتها ، وتعمل بالتناسق فيما بينها . وقد أخذت هذه الفرق الضخمة تحت قيادة الجنرالات لامورسيير وكافينياك وبيدو وبيجو ، تحرث الأرض حرثا فى كل الأنحاء ، تسحق كل مقاومة تظهر أمامها بالحديد والنار ، وتحرق المنازل دون تردد ، وتشعل النيران فى الحصاد ، وتسوى المدن بالأرض ، وتذبح الناس بدون رحمة . واشتهر فى ذلك ماعرف باسم « الطابور الجهنمى » تحت قيادة الجنرال سانت أرنو St. Arnaud ، وأحست الجزائر بوحشية العمل الاستعمارى الذى يرتدى زيفا رداء المدنية والتقدم .

وقد ترتب على ذلك أن وجدت كثير من القبائل نفسها بين الفناء التام والاستسلام . ولم تغن محاولات عبد القادر لردها إلى النضال الوطنى بالاقناع أو بالقوة ، كما فشلت جهوده لتجنيد قوات من قبائل الصحراء ، فأينما حل وجد الفرنسيين أمامه قد سبقوه.وقد استسلم أولاد نائل ، وبنو صهيب ، وبنو حسن الذين طالما مون نفسه من مواردهم ، واعتاد أن يجد عندهم الملجأ وقت الشدة ، وحيثما حل عبد القادر وجد الفتور والقنوط واليأس . ان نزوله ببعض القبائل أصبح يعد حينذاك علامة من علامات سوء الطالع ومقدمه سوء .

فقد زار أولاد سيدى الشيخ ، وهم قبيلة كبيرة وقوية فى أقصى جنوب الصحراء ، واجتمع برؤسائهم ومرابطيهم ، وقد استقبلوه بترحاب ، وأعربوا له عن عواطفهم الصادقة ، وعرضوا عليه ضيافة مؤقتة ، ولكنهم تضرعوا إليه ألا يعرض قبيلتهم للنكبات ، ويعرض قبور أوليائهم لدنس الكفار . وقد تقبل عبد القادر هذه الرغبة بالهدوء والاستسلام ، وعاد إلى دائرته فى المغرب محطم القلب .

وقد كانت قمة المصائب حين أصر السلطان عبد الرحمن على خروج عبد القادر من الحدود المغربية ، ووصل فى اصراره على ذلك إلى حد تسيير الجيوش المغربية ضده . فمع أن عبد القادر استطاع إلحاق الهزائم بهذه الجيوش إلا أن موارده كانت قد نضبت ، وذخيرته قد نفدت تقريبا ، وماغنمه جنده من

ذخيرة لم يكن يصلح لبنادقهم ، وبذلك أصبح المشاة لايعول عليهم ، فى الوقت الذى فقد عبد القادر أكثر من مائتين من رجاله ، وكان الباقون جميعا يعانون من الجراح .

وعلى ذلك حين أخذت جيوش المغرب تتحرك من جديد ضد عبد القادر ، لإجباره على الانسحاب بدائرته من الأراضى المغربية ، لم يجد مفرا من الانصياع – فعبرت دائرته وادى ملوية ووصلت إلى وادى قيس فعبرته حوالى منتصف الليل ، وبذلك أصبحت فى المنطقة التى يسيطر عليها الجيش الفرنسى .

ووقف عبد القادر يفكر : أى قوة بقيت لديه ؟ وهل مازال يملك القدرة على المقاومة ؟ . وكان مع جنوده الممزقين على بعد ثلاث ساعات من أول معسكر فرنسى يمكن أن يدخلوه جميعا قبل مضى وقت طويل كأسرى حرب . وقرر عقد اجتماع لرجاله .

وقد عرض عبد القادر فى الاجتماع أفكاره على النحو الآتى : « إذا كنتم تعتقدون أنه مازال بوسعى أن أقوم الآن بأى شىء ، فأخبرونى . وان كنتم لاتعتقدون ذلك ، فإنى أعفيكم من القسم الذى أقسمتموه أمامى فى « المدية » منذ ثمانى سنوات عندما قررنا استئناف الحرب ، والذى تعهدتم فيه بألا تتخلوا عنى مهما كانت الأخطار » ثم قال : ان أمامنا الآن ثلاثة بدائل : إما العودة إلى الدائرة واستئناف النضال فى وجه أية عقبة . وإما التوجه إلى الصحراء ، وفى هذه الحالة لاتستطيع النساء والأطفال ولا الجرحى أن يتبعونا وسيسقطون لامحالة فى يد العدو . وإما الاستسلام .

فأجابوه : « لتهلك النساء والأطفال مادمت أنت سليما قادرا على استئناف الجهاد فى سبيل الله والوطن . أنت قائدنا وسلطاننا ، فحارب أو استسلم كما تشاء ، فإنا سائرون خلفك إلى حيث تقودنا ». فتوقف عبد القادر بعض لحظات ، وقال فى تأثر عميق :

« ان المقاومة قد انتهت وعلينا ان نعترف بذلك ، والله شاهد على أننا قد

حاربنا طالما كان فى وسعنا ذلك ، ولكن القبائل أصبحت متعبة من الحرب ولم تعد تطيعنى ، ولم يبق أمامنا سوى الاستسلام . والسؤال الآن : لمن نسلم أنفسنا ؟ هل نسلم أنفسنا إلى الفرنسيين أم إلى السلطان عبد الرحمن ؟ . لكم أن تقرروا ماتشاءون ولكنى أفضل ألف مرة أن أثق فيمن حاربنى على من خاننى » . فأجاب الجميع بصوت واحد : « لك ماتريد أيها السلطان » .

وبذلك انتهت صفحة خالدة من كفاح الجزائر .

استسلام عبد القادر :

فى ذلك الحين ، كان الجنرال لامورسيير أقرب القادة الفرنسيين من موقع عبد القادر ، فأرسل إليه مبعوثين من فرسانه ، ومعهما ورقة عليها خاتمه للتفاوض فى الاستسلام . وكانت شروط عبد القادر تتلخص فى طلب الأمان له ولأسرته ولجميع من يريدون اتباعه ومرافقته ، على أن تنقله فرنسا إلى عكا أو الاسكندرية ليعيش فيها بقية حياته . وقد وافق الجنرال لامور سيير على هذه الشروط وهو لايصدق نفسه ، وأعطى سيفه وخاتم أحد ضباطه إلى مبعوثى عبد القادر لتقديمها له علامة على القبول . على أن رفاق عبد القادر أرادوا موافقة كتابية من الجنرال ، فقدمها على الفور .

وفى صباح يوم ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧ ، سار الأمير متبوعا بقواده ورجاله الذين قرروا مشاركته مصيره إلى زاوية سيدى إبراهيم ، حيث كان العقيد مونتوبان Montauban على رأس خمسمائة فارس ، فاستقبله بكل احترام واجلال بما يليق بمكانته وأعماله البطولية . ثم وصل الركب إلى جامع الغزوات ، حيث مقر قيادة الدوق دومال ، فتوجه عبد القادر يرافقه الجنرال لامورسيير والجنرال كافنياك Cavignac والعقيد بوفور Beaufort، وسلم نفسه إليه قائلا :« لقد وعدنى الجنرال لامور سيير وعدا أعتمد عليه كل الاعتماد ، ولست أخشى أن يخلف ابن ملك فرنسا هذا الوعد » . فأكد الدوق دومال هذا الوعد . وفى يوم ٢٥

ديسمبر ١٨٤٧ ركب عبد القادر وعائلته وأتباعه السفينة « أسمودوس » التى توجهت بهم إلى طولون .

وقد استقبل نبأ استسلام عبد القادر فى فرنسا بالفرحة الطاغية ، وزفته جريدة « المونيتور » إلى الفرنسيين قائلة : « اليوم تستطيع فرنسا أن تنقل المائة ألف جندى الذين تستخدمهم فى الجزائر إلى أية مناطق أخرى تريد استخدامهم فيها » . فكان هذا القول خير تمجيد لعبد القادر ، الذى كان وجوده فى الجزائر يساوى مائة ألف جندى فرنسى مخصصين لإخضاعه .

المقاومة الجزائرية بعد عبد القادر :

لم تنته المقاومة الجزائرية بتسليم الأمير عبد القادر ١٨٤٧ . ففى ذلك الحين كان الفرنسيون قد استولوا على البلاد فيما عدا منطقتين هما :

أولا : واحات الجنوب ، التى اعتصم بها بعض زعماء الطرق الصوفية ودافعوا عنها باسم الدين ، ومنها واحة الزعاطشة التى اشتهرت بخوض مقاومة عنيفة تحت زعامة أحد رجال الطرق الصوفية يدعى « بوزيان » ، وانتهت فى عام ١٨٤٩، وواحتا ورغلة والأغواط اللتين تم اخضاعهما فى ١٨٥٣ .

ثانيًا : بلاد القبائل التى تسكنها قبائل البربر ، وتتكون من بلاد القبائل الصغرى فى الجزء المسكون من أطلس الكبرى وخاصة جبال الأوراس وعجور . وبلاد القبائل الكبرى (أو جبال جرجرة) ، وتقع بمحاذاة الساحل الشمالى اشرقى للجزائر ، وكان البربر قد رفضوا فى البداية التعاون مع الأمير عبد القادر لشعورهم بالأمن من الغزو فى جبال القبائل الوعرة ، ولإحساسهم بالتمايز الجنسى ، وبعد أن تم للفرنسيين احتلال السهول بدءوا فى التسلل إلى بلاد القبائل الصغرى سنة ١٨٤٣ ، وفى خلال السنوات (١٨٥٤ - ١٨٥٧) ، أخذوا فى غزو بلاد القبائل الكبرى تحت مقاومة شعبية عنيفة ، لعبت فيها

الطريقة الصوفية الرحمانية دورًا طليعيًّا ، وقد انتهى إخضاع منطقة القبائل فى يوليو ١٨٥٧ .

ثورة مقرانى ١٨٧١ :

لم تتوقف الانتفاضات الشعبية ضد الحكم الفرنسى ، وإن أصبحت متفرقة وقل عددها ، وأبرزها فى الستينات ثورة قبائل ولد سيدى شيخ فى ١٨٦٤ . وفى عام ١٨٧١ وعلى أثر هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية ، شبت أضخم الثورات وأخطرها فى الشرق الجزائرى ، وهى ثورة محمد بن أحمد مقرانى ، وهو من طبقة الحكام الوطنية ، عمل أبوه كخليفة لمنطقة المجانة قرب سطيف ، تحت الادارة الفرنسية ، ثم خلفه ابنه محمد فى هذا المنصب سنة ١٨٥٣ بلقب باش أغا ، وقد توطدت صلة مقرانى بالشيخ على الحداد ، الذى قام بنشر الطريقة الرحمانية فى بلاد القبائل فى الخمسينيات ، وعرف أتباعه بالإخوان . وفى فبراير زار مقرانى الشيخ بمقره ، وقيل إنه اتفق معه حينذاك على الثورة ، ولكنه لم يعلنها إلا فى أوائل مارس . وقد عمت الثورة أولا إقليم قسنطينة حيث تقع جبال القبائل ، ثم انتشرت فى أطراف سهل المتيجة غربًا ، وإلى بسكرة جنوبًا . وأصبحت تسيطر على ثلث أرض الجزائر ، وعزلت الحاميات الفرنسية فى المنطقة . وقدر عدد الذين اشتركوا فى الثورة بنحو ١٥٠ ألفا ، منهم ١٢٠ ألفا من الإخوان الرحمانية .

على أنه لسوء الحظ وقع مقرانى صريعا فى بداية المعارك الأولى فى ٢ مايو ١٩٧١ مع القوات الفرنسية ، التى تعززت بعدد من الأسرى الذين أطلق سراحهم بسمارك للاشتراك فى قمع ثورة الجزائر لتخفيف وطأة الهزيمة . واضطر زعماء القبائل فى نهاية الشهر إلى المفاوضة فى التسليم ، وتبعهم الشيخ الحداد على رأس طائفة الإخوان فى يوليو ١٨٧١ . وأما بومزران مقرانى ، الذى خلف أخاه فى الزعامة ، فقد ظل يناضل حتى يناير ١٨٧٢ ، بعد أن انتقل إلى الواحات الجنوبية .

وتعتبر ثورة مقرانى نهاية المقاومة الوطنية المسلحة من الناحية الفعلية ، فإن الوسائل الوحشية التى اتبعتها السلطات الفرنسية فى قمعها ، أدخلت اليأس فى نفوس الوطنيين ، وأدت إلى رضوخهم نحو نصف قرن .

مراجع للاستشارة :

- شارل هنرى تشرشل : حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة وتقديم وتعليق الدكتور أبو القاسم سعد الله . (الدار التونسية للنشر ١٩٧١) .

- د . ارجمند كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر ١٨٢٧ - ١٨٤٧ ترجمة الكتور عبدالجليل التميمى (تونس١٩٧٤) .

- د . جلال يحيى : السياسة الفرنسية فى الجزائر ١٨٣٠ - ١٩٦٠ (القاهرة دار المعرفة ١٩٥٩) .

- د . صلاح العقاد : المغرب العربى : الجزائر ، تونس ، المغرب الأقصى (القاهرة : الأنجلو المصرية ١٩٦٩) .

Lutsky, V., Modern History of the Arab Countries (Moscow 1969).

- ناصر الدين سعيدونى : النظام المالى للإيالة الجزائرية ١٨٠٠ - ١٨٣٠ (بحث لدكتوراه الدور الثالث غير منشور ١٩٧٤) .

- د . أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية .
(دار الآداب - بيروت ١٩٦٩) .